إبراهيم أصلان

حجرتان وصالة

متتالية منزلية

الطبعة الثانية

دار الشروق



في «حجرتان وصالة» يأخذنا إبراهيم أصلان بأسلوبه الفريد إلى عالم من المواقف اليومية التي تبدو شديدة العادية وقابلة للحدوث في أي بيت ولأية أسرة، لكن أصلان بلغته الدفّاقة وسخريته يضفي عليها نوعًا من السحر، ويفجر من المعاني والدلالات ما يجعل هذه الحكايات تعيش في ذاكرة القارئ طويلًا.

تضم «حجرتان وصالة» ثماني وعشرين حكاية منزلية عن زوجين، أودع فيها أصلان خبرة نادرة في تخليق نوع من القصص لا تكاد تبدأ قراءته حتى تكتشف في الكاتب والكتابة والحياة اليومية درجات من الدهشة ربما لم تلتفت إليها أبدًا.

الغلاف للفنان: محيي الدين اللبّاد

دار الشروق
www.shorouk.com



إبراهيم أصلان

حجرتان وصالة

متتالية منزلية

دار الشروق

المحتويات

١ـ الحــارس

كانت الشقة تطل على جزيرة مزروعة بكمية من الأشجار العالية، حولها رصيف بيضاوي كبير، وفي جانب من هذه الجزيرة برميل كان البواب يضع فيه أكياس القمامة. وكان الأستاذ خليل إذا وقف في بلكونة الحجرة الكبيرة يرى الزبال وهو يحمل هذه الأكياس إلى عربته الصغيرة التي يجرها بنفسه. الحجرة الأخرى لم تكن بها بلكونة. وقد مضت فترة وهم من دون بواب أو بوابة. وعندما اشترى الجرائد وعاد رأى واحدًا يجلس على الرصيف إلى جوار الجذع الكبير أمام المبنى.

كان ضخمًا بصورة لم يعهدها في كل البوابين وغير البوابين الذين رآهم من قبل، وكاد جلبابه بطوقه المفتوح أن يتفتق عن جسده الكبير. كانت ساقه القريبة مثنية أمامه وسمانتها الممتلئة مختنقة في حافة سرواله الطويل الأبيض. ولاحظ أن سطح قدمه العاري، بأصابعه القصيرة القاتمة، منتفخًا جدًّا وفردة الشبشب مرمية تحت الرصيف. والأستاذ خليل بعدما نظر قال سلام عليكم ولكنه لم يرد عليه. لقد كان نائمًا ودماغه الحليق مائل على صدره وفمه مفتوح عن آخره

ويلهث في بطء. وعندما صعد إلى الشقة وهو يستريح بين آن وآخر سألته الحاجة إن كان رأى البواب الجديد، وهو استفسر منها إن كان هـو الرجل الضخم الذي ينام تحت الشجرة وقالت:

«أنا سمعت، لكن ما شفتوش».

قـال:

«طيب».

مع خروجه ودخوله لاحظ أنه أصغر سنًا مما كان يعتقد. كما لاحظ أنه نائم طيلة الوقت. ولكنه رآه في بعض المرات يجلس مستيقظًا وبين قدميه وحوله أربعة أو خمسة من الأولاد والبنات مختلفي الأحجام يتعلقون بجسده الكبير أو يتجمعون مثل جماعة من الجراء يأكلون أمام ساقيه بينما هو يجلس حزينًا يلهث ويدفع من يتعلق بكتفيه من الصغار ولا يلوي على شيء. كانت زوجته نحيلة ونشيطة وتقوم بخدمة السكان في جلبابها الكحلي الداكن بزهوره الباهتة الخضراء. وكان عندهم في الشقة جرس له سلك طويل يمتد حتى حجرة البواب في الجراج الواسع أسفل المبنى. من يرد شيئًا يضغط الجرس المثبت تحت السخان في المطبخ، بعد فترة تصعد زوجة البواب. كانت تضغط الجرس وتقف مشدودة القامة بعيدًا عن فتحة الباب. تنتبه لما يطلب منها وهي تضيق عينيها اليقظتين، ثم تقبض على النقود والورقة التي دونت فيها الطلبات وتنزل. توقظه ليقرأها لها وتتصرف. الأستاذ خليل لم يعرف إن كان هو الذي يخطئ في القراءة أم أنها هي التي تنسى؛ لأنها كانت تأتي أحيانًا بطلبات غير الطلبات أو تأتي بكيلو واحد بدلًا من ثلاثة. في بعض المرات

كانوا يضغطون الجرس ويصعد أحد الأولاد من الصبيان أو البنات فيقولون له:

«انزل ابعت أمك».

أما عاشور فلم يكن يلبي نداء الجرس لأنه لا يستطيع أن يصعد السلم. وكان الأستاذ خليل يقف في البلكونة ويراه وهو يبحث عن ركن يغفو فيه دون أن يراه أحد. كانت زوجته تختفي بالساعات بحجة أنها لا تستطيع أن تقوم بطلبات المبنى وحدها. وعندما يبدى ساكن أو آخر ملاحظة حول هذا الأمر كانت تقول بوضوح:

«أصل احنا مش بوابين».

أو تقول:

«آني لوحدي، والراجل تخين».

وكان الأستاذ خليل يصدق أنهم ليسوا بوابين. المنطقة كلها تمتلئ بهؤلاء الناس. لا يوجد مبنى واحد من دون رجل وعائلته. هم يقبلون على هذا العمل الذي يمكن لأي أحد أن يقوم به، وهو يوفر لهم حجرة وأجرًا معقولًا، فضلًا عن الإكراميات وما قد يفيض عن السكان.

وفي كل المرات التي صادف فيها عاشور وهو مستيقظ كان يلمح كيف يتجنب عينيه ويطرق برأسه الحليق إلى ناحية. وكانت عندهم في البلكونة مروحة قديمة من أيام الشقة القديمة مركونة ومنزوعة الشبكة التي تغطي ريشها البلاستيك، وأم سليمان أعطتها لزوجة البواب، وهو رآها تأخذها وتنصرف بينما سلكها يتدلى وينسحب

وراءها على البلاط أمام باب الشقة لغاية الفيشة القديمة ما وقعت على درجة السلم الأخرى وراء زوجة البواب. وفي الصباح الباكر وقف في البلكونة يشرب الشاي بعدما أكل وتناول العلاج، ومال ولمحها مرة أخرى تغادر فتحة الجراج المنحدر وتحمل على رأسها صرة كبيرة، ثم رأى البواب نفسه وهو يتبعها والأولاد يحيطون بهم عند السور المزروع للمبنى المجاور. كان يتحرك بطيئًا مثل هضبة ويجر قدميه بصعوبة، وكان المكان خاليًا إلا منهم. وبعد ذلك نزل واشترى الجرائد وعاد والمروحة القديمة كانت مركونة في حوش المبنى والسلك ملفوفًا عليها. والأستاذ خليل حملها وراح يطلع السلم على مهله.

٢- الرجل الذي كسر الطبق

الصبح بدري، انتبه الأستاذ خليل من النوم وقعد في السرير.

منذ خروجه إلى المعاش وهو يقوم في ميعاد العمل بالضبط. يزيح الغطاء عن ساقيه ويلتفت إلى الجانب الآخر من الحجرة شبه المعتمة، ويرى زوجته الحاجة وهي نائمة لا يظهر منها أي شيء، لأنها تغطي نفسها بالبطاطين وتضع مخدة على رأسها.

وهو غادر إلى الصالة ببنطلون البيجامة والفانلة ذات الأكمام، ووضع الروب الصوفي القديم على كتفيه وتركه مفتوحًا وراح يتحرك إلى هنا ثم يتحرك إلى هناك. وفي المكان الصامت الخالي إلا من الأنتريه ومنضدة السفرة كان يفتقد المكاتب والأجهزة وعبد الفتاح والدوشة وشعر بنوع من الهدوء ونوع من عدم الهدوء. واتجه إلى المطبخ وفتح الثلاجة وأكل قطعة جبن من الصحن الصغير الموجود، وتناول زجاجة بها كمية قليلة من الماء شربها كلها، واستدار يضعها على طاولة النملية حتى تقوم الحاجة وتملأها، وعندما كان يدفع هذه الزجاجة الخالية من دون عناية سقط الطبق القيشاني الكبير الذي كان موجودًا ووقع. نزل على البلاط وتكسر إلى عدة قطع متفاوتة

لم يتناثر منها شيء. صار أشبه بدائرة من القطع المثلثة المتجاورة وكل قطعة منها تميل إلى الوراء. وهو تأملها قليلًا ثم انحنى بصعوبة ولمها على بعضها، واتجه إلى ركن المطبخ حيث كانت حواف كيس البلاستيك الأسود ظاهرة أعلى صفيحة القمامة وألقى بها. ثم إنه ضغطها في الصفيحة إلى أسفل وغطاها بورق الخس الذي كان في الركن وأخفى معالم الطبق تمامًا. بعد ذلك عمل لنفسه كوبًا من الشاي وتناول العلاج وقعد يتفرج على التليفزيون حتى غلبه الكسل وقام خلع الروب وفرد جسمه على السرير ثم استيقظ على جرس الباب. ووجد أن الولد الصغير فتح للولد الكبير الذي عاد من الشغل. وهو تناول منه الجريدة ولبس الروب ووضع النظارة وقعد يقرأ بشعره الأبيض المنكوش وقد وضع ساقًا على ساق.

بعد قليل، سمع صوت الحاجة يأتي من المطبخ إلى الصالة:

«كان فيه طبق هنا على النملية».

ولم يعلق أحد بأي شيء.

والحاجة التي كانت تنام بعد صلاة الفجر وتقوم قبل مجيء الولد من الشغل بعدما تكون أعدت أكل اليوم في سهرة الأمس وهي جالسة أمام التليفزيون، وقفت في مدخل المطبخ بجلبابها وقالت بصوت مسموع:

«كان فيه طبق على النملية يا ولاد».

ولم يعلق أحد الولدين أيضًا بأي شيء. لأن أحدهما عاد لتوه من

الشغل، والآخر قام الآن من النوم وأمسك التليفون. ولم يكن أمامه شخصيًا إلا أن ينحي الجريدة جانبًا ويقول:

«طبق إيه؟».

قالت:

«الطبق الصيني أبو ورد».

قـــال:

«ماله؟».

«مش لاقياه».

«حيبان. يعني حيروح فين؟».

وواصل القراءة وهو يفكر. وعندما عادت الحاجة إلى المطبخ غلبه القلق لأنه خشي أن تنكش في الصفيحة وتعرف. ولكنها خرجت بعد قليل وقالت:

«أنا باستغرب».

«ليه يعني؟».

«أنا حطاه بإيدي علشان الصلصة».

«ما تشوفي طبق تاني».

«هو انا على تاني والا تالت؟، أنا عاوزه اعرف راح فين».

وهو ضم شفتيه ومدهما كمن يشم شاربه. وواصل القراءة في الجريدة.

بعد قليل وضعت الطعام على المنضدة وتناولوا الغذاء. جلسوا ثم ذهب الولد الكبير إلى خطيبته والصغير ارتدى ثيابه وأخذ مصروفه وخرج يقعد مع أصدقائه على القهوة. والحاجة دخلت الحجرة وقعدت على السرير تسمع القرآن في التسجيل، وهو دخل المطبخ يعمل لنفسه كوبًا آخر من الشاي ونظر بجانب عينه ووجد ورق الخس الأخضر يغطي فتحة كيس القمامة الأسود. وأثناء مروره أمام الحجرة سمعها تقول:

«يعني يكون عفريت خده يا ربي؟».

وأطل عليها من باب الحجرة وقال باستنكار:

«يعني هو العفريت، ما لقاش غير الطبق ده بالذات اللي ياخده».

والحاجة استغفرت ربنا ونظرت إليه باستنكار. وهو تركها واتجه خفيفًا إلى البلكونة. جلس يشرب الشاي ويتفرج على الناس، ويرى السماء التي انحدرت وراء المباني البعيدة آخر المساء، وكان يضع ساقًا على ساق، ويلعب في سمانة رجله العارية.

٣ـ صديق قديم

في الصالة، مد الولد يده بسماعة التليفون، وهو نظر إليه وسأله:

«مين؟».

والولد رد وقال:

«مش عارف».

تناول السماعة وهو ينظر إلى الجريدة غاضبًا.

«آلــو».

وجاءه الصوت واهنًا:

«آلو؟».

«أيوه».

«كل سنة وانت طيب».

«وانت طيب. مين؟».

«مش عارفني؟ أنا مصطفى».

«الصباغ؟».

خيل إليه أن الآخر يضحك. ثم سمعه يتكلم بصوت خافت ونفس شبه مقطوع، بينما هو شخصيًا غير قادر على فهم ما يقول. وفكر أنهما تزاملا أيام الشباب وافترقا. ربما التقيا مرة أو مرتين قبل أكثر من عشرين عامًا. كل عدة سنوات يتصل مرة، يتحدثان وينتهي كلامهما بضرورة الاتفاق على ترتيب موعد يلتقيان فيه ولا يفعلان.

أبو سليمان فهم من الكلام أنه أصيب قبل سنوات بجلطة خفيفة في المخ ولكنه عولج منها. الأشعة المقطعية على المخ أنقذته. الحمد لله لم تترك أثرًا، وأنه لو رآه الآن لن يعرفه:

«كلنا كبرنا يا مصطفى».

«آه يا أخي. مع إني حاسس جوايا إني لسه صغير، لكن إيه حكاية مصطفى دي؟».

وهو استغرب وأُحرج يسأله:

«أمال انت مين؟».

حاول أن يرد الصوت الواهن إلى أحد الأصوات القديمة الأخرى ولم يقدر. ظل يتخيله مصطفى الصباغ ويراه أمامه بقامته الطويلة النحيلة وملامحه الحادة السمراء وعينيه الكبيرتين. كانا صغارًا إلا أنه لم يتخل عن رابطة عنقه يومًا. سترته داكنة بأزرار معدنية في جيبها الخارجي علبة سجائر ماتينيه يفتحها ويفض غلافها الذهبي الداخلي ويخرج سيجارته. يدق كعبها على باطن العلبة ويشعلها. يعرف طريق الملاهي الليلية. في تلك الأيام كان على علاقة براقصة شبه معروفة.

كلما رأته معه تعاكسه وتضحك هي ومصطفى، وهو يخجل ويزداد ضحكهما. بين حين وآخر كان يمد يده إلى جيبه الداخلي ويخرج مشطًا صغيرًا من العاج الأسود، يسرح شعره ويمرره على حاجبيه ويعيده إلى مكانه. وقال لاهثًا:

«والنبي تطمني عليك يا خليل».

أبو سليمان قال:

«يعني. ماشي الحال».

«عملت إيه في العيد؟».

«أنا نمت».

سأله إن كان نام طول النهار، أم إنه نام ورجع قام من النوم. قال إنه نام وقام من النوم.

حينئذ أخبره أنه يجلس الآن وحده داخل الشقة. البنتين في بيوت أزواجهما. والولد يعيش مع زوجته في الإسكندرية. قال إنهم اتصلوا به وقالوا له كل سنة وأنت طيب يا بابا، وأخبروه أن التليفزيون يذيع برامج حلوة وكثيرة جدًّا ولا بد أن يسلي نفسه بالفرجة عليها:

«العيال بتضحك عليَّ يا خليل».

قـــال:

«عيال بقى».

أخبره أنه يعرف، لكن الوحدة وحشه يا أخي.

«مش أمهم معاك؟».

قال إن أمهم جنت. أبو سليمان ظن أنها جنت بالفعل وقال:

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

والآخر ضحك وقال إنها بدأت تتكلم عن حقها في أن تعيش حياتها مثل بقية النسوان، ثم أضاف جملة لم يتبينها، وقال:

«وطبعًا طلقتها».

«طلقتها؟».

«أستنى إيه بعد كده؟».

ثم بدأ يلهث وهو يؤكد له أنه لا يتصور مقدار الراحة التي شعر بها بعد أن فعل ذلك.

وقال:

«اسكت يا راجل. كلام فارغ».

ثم تكلما في أشياء أخرى، وأنهيا كلامهما بضرورة الاتصال لكي يتفقا على موعد يلتقيان فيه.

٤- بعد المغرب.. تقريبًا

كانوا يجلسون في الصالة. هو على المقعد الكبير الذي إلى يسارك وأنت داخل، والحاجة على المقعد الكبير الذي إلى يمينك وأنت أيضًا داخل، وزوجة الابن تلم ساقيها في ركن الكنبة الصغيرة تقلب المجلة وتطالع فيها، أما الكنبة الكبيرة المواجهة للمدخل فقد كانت خالية إلا من كومة وسائد مبعثرة. وفي المنتصف كانت الطاولة البنية الكبيرة عليها مسبحة، وريموت، ومطفأة سجاير من الزجاج المصنفر.

كان قد فكر أن يدخل حجرة النوم عندما جاء ابنه وزوجته، والولد تركها وانصرف بحجة الذهاب إلى الحلاق. كان يعرف أنه بعد الحلاق سوف يجلس مع أصدقائه في المقهى. وهو زمان كانت لديه قيلولة يأخذها بعد تناوله للغذاء، أما الآن فهو يأخذ القيلولة عدة مرات سواء في النهار أو في الليل، أحيانًا يقوم منها دون أن يعرف إن كان قد نام فعلًا أم هيئ له، وكان يغالب النعاس بالاستماع إلى التليفزيون الذي كان ملاصقًا للجدار الأيمن ولا يراه إلا من الجنب. كان يلمح خيالات فقط من صور الفيلم القديم ويسمع الأصوات

ويتعرف فيها على صوت الراقصة كيتي وإسماعيل يس وعبد الفتاح القصري، وانتبه فجأة على صوت الحاجة وهي توجه كلامها إليه:

«هو انا امبارح كنت باقول إيه، يا خليل، وانت رديت قلت إيه؟».

وهو انتبه إلى كلمة: «امبارح»، لذلك قال:

«إمبارح إمتى؟».

قالت:

«إمبارح واحنا قاعدين».

قـــال:

«مش واخد بالي والله».

ورمق زوجة ابنه ووجدها مستغرقة في المجلة. ورفع عينيه إلى الحاجة ووجدها تتطلع أمامها وهي غاية في التفكير. ثم أطرقت تتأمل أصابع يديها المستقرتين في حجرها. وقال:

«هو حصل حاجة والا إيه؟».

قالت:

«أبدًا. أصل انا امبارح سألتك عن حاجة، لكن مش فاكرة إنت قلت إيه».

«وفاكرة الحاجة اللي سألتيني عنها؟».

«هو انا لو فاكره، كان إيه يخليني اسألك؟».

هز رأسه موافقًا.

وراح يحاول أن يتذكر ما جرى بالأمس. وزوجة ابنه قالت:

«تشرب شاي يا بابا، والا اعمل لك ينسون؟».

قـال:

«أنا عاوز اشرب قرفة».

وبعدما قامت دخلت المطبخ قال:

«أنا افتكرت، إحنا اتكلمنا امبارح عن سلك التليفون».

قالت:

«وانا سألتك عن إيه بقى؟».

قال:

«أبدًا. انتي قولتي إن السلك قصير، وأنا قلت لك إن السلك طويل».

استغرقت في التفكير مرة أخرى. بعد فترة تمتمت تحدث نفسها:

«تليفون إيه، وسلك إيه اللي قصير؟ وسلك مين اللي طويل؟ إحنا اتكلمنا عن حاجة تانية خالص».

سمعها وقال:

«جايز. أنا مش فاكر».

«إللي مش فاكر، بدل ما يقول تليفون، ويقول سلك قصير، ويقول سلك طويل، يقول إنه مش فاكر وخلاص».

وجاءت زوجة ابنه بالصينية وضعتها على الطاولة وناولته الكوب، وهو أعاده إلى الصينية لأنه كان ساخنًا، وجلس يتابع الخيالات الجانبية لصور التليفزيون، ويتعرف على أصوات الممثلين، مثلما كان يفعل قبل أن ينشغل مع الحاجة في الكلام.

٥ـ آخــر النهــار

«إزيك يا بابا. كل سنة وانت طيب».

هكذا قالت زوجة ابنه وهي تضع علبة الكعك على منضدة السفرة، واتجهت إلى الحجرة الداخلية لكي تسلم على الحاجة. بينما كان الابن قد أغلق باب الشقة، ثم استدار إلى أبيه وقال مبتسمًا:

«إزيك يا عم يا أبو سليمان».

وابتسم أبو سليمان وقال:

«أهلًا يا سليمان».

«كل سنة وانت طيب».

«وانت طيب».

ولاحظ أن سليمان ازداد طولًا وهو واقف أمامه بعدما كان يماثله في الطول حتى الأيام القريبة الماضية. والآن كان يرفع وجهه إلى وجه الولد لكي يراه جيدًا. وتراجع على نحو غير ملموس ونظر إلى قدميه ورأى أنه يقف على السجادة القديمة المفروشة ولا يلبس شيئًا

آخر غير الحذاء. والحاجة خرجت من الحجرة وهي تضبط طرحتها وقعدت في الصالة، والزوجة الشابة فتحت العلبة ووضعت الكعك في الطبق وعملت الشاي وجلسوا يتكلمون ويتذكرون ويضحكون. وسليمان سأل عن شقيقه أشرف وأخبروه أنه مع أصدقائه. ثم إنه أخذ زوجته وانصرفا لكي يزورا حماته، والحاجة عادت إلى الحجرة.

أبو سليمان شرب من الماء وذهب وراءها وقال:

«هو الولد سليمان طول؟».

رفعت وجهها وهي قاعدة على السرير وقالت:

«سليمان مين؟».

«سليمان ابنك».

«ماله؟».

«هو طول؟».

«طول ازاي يعني؟».

«يعني بقى أطول من الأول؟».

«الأول إمتى؟ وهو صغير؟».

«لأ. طول عن الشهر اللي فات مثلًا».

«ليه. هو فيه حد بيطول وهو عنده تلاتين سنة».

أبو سليمان تدبر الكلام وسألها:

«أمال انا اللي قصرت والا إيه؟».

وهي قاسته بعينيها من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، وقالت:

«أنا عارفة؟».

«مش عارف إذا كنت انا اللي قصرت والا هو إللي طول؟».

«طيب وانا اعرف ازاي؟».

«يعنى، من وجهة نظرك كده (واستقام في وقفته) أنا زي ما أنا، والا قصرت شوية عن الأول؟».

«يمكن».

تغيرت نبرة صوته وهو يقول:

«يمكن؟».

«الله. مش انت اللي بتقول؟».

استدار وغادر مدخل الحجرة، وهي قالت وراءه:

«ابق هات لي متر، علشان كل شويه أقيسك وأقيسه».

كان وصل الصالة وهو يشعر بمنتهى الاختناق من هذه الطريقة في الكلام. وقعد أمام التليفزيون دون أن يلعب في الريموت. بعد فترة قام واتجه إلى الحجرة وتجاهل وجودها على السرير. نظر سريعًا إلى الدولاب وفوجئ بالعجوز ضئيل الحجم الذي يتطلع إليه من عمق المرآة المعتمة المصقولة، وعندما مد يده يفتح ضلفة الدولاب رآه يسرع بالانصراف. ظل واقفًا يتطلع إلى الهدوم المرتبة كأنه يبحث عن شيء ما، وبينما كان يغلق الدولاب لمح العجوز وهو يأتي مرة أخرى

مع حركة المرآة وينظر إليه غاضبًا. حينئذ غادر المكان وعبر الصالة إلى المطبخ. فتح الثلاجة وأغلقها، ورفع غطاء الحلة الموجودة على البوتاجاز ووضعه. ثم ترك المطبخ ودخل الشرفة الصغيرة واستند بجسده إلى سورها الحجري القصير، ورأى النوافذ والشرفات البعيدة الخالية. وهناك، كانت الشمس تغيب، مع ارتجافة أخيرة من ضوء النهار في الأفق البعيد.

٦- عدس أصفر

كل يوم في الليل، كانت تضع كمية صغيرة من الفول في قدرة التدميس الألومنيوم ببطنها المنفوخ، ثم تنقلها إلى البوتاجاز، وبعدما تغليه مرة واحدة تطفئ النار وتنقل هذه القدرة إلى السخان المستدير المسود، وتضيف إليها حفنة من الأرز وتوصل الفيشة ببريزة الكهرباء وتحكم الغطاء على القدرة، وقبل أن تنام، كانت تضيف إليه كمية من الماء.

الصبح، كان يغادر حجرة النوم، ويتناول حبة الدواء التي يأخذها على الريق، ويعطي لنفسه الحقنة، ثم يتجه إلى المطبخ ويفصل السخان عن الكهرباء، ويمسك بالفوطة ويرفع غطاء القدرة ويقلب الفول المدمس، ويغرف ثلاث ملاعق في الطبق ويضع عليها شعرة من الملح والفلفل وقليل من زيت الزيتون، وينقل الطبق إلى الصينية البلاستك المدورة مع رغيف، ويعد طبقًا آخر به قطعة من الجبن الأبيض خفيف الملح وحبة طماطم وخيارة مشققة، ويضع الماء في البراد ويحمل كل شيء ويخرج إلى الصالة، يجلس ويبدأ يأكل ويتنقل بين محطات التليفزيون.

اليوم لم يعجبه شكل الأرز الأبيض بين حبات الفول البني وشعر بأنه يأكل عليَ مضض خصوصًا لما تذكر أن أمه رحمة الله عليها كانت تضع بدلًا من الأرز الأبيض حفنة من العدس الأصفر، وتغلق فوهة القدرة بنصف حبة من الطماطم، كما تذكر أن لون العدس الكهرماني مع الفول البني يكون جميلًا في الطبق وطعمه يكون أحلى بكثير. وعندما انتهى من الطعام تناول حبات الدواء التي يأخذها بعد الإفطار وحمل الصينية إلى المطبخ وصب الماء الساخن في كوب الشاي، ووضع حبتين من السكر الاصطناعي، وحمله بحرص وعاد إلى مكانه. وبينما كان يتفرج شعر بها وهي تقوم من النوم وتغادر الحجرة وراء ظهره وتتجه إلى الحمام، وهو لحق بها، دون أن يلتفت، وعبر لها عن اعتقاده بأنها لا تأكل من هذا الفول الذي تعمله. وهي لم ترد بل أسرعت بدخول الحمام وإغلاق الباب لأنها كانت تريد أن تفعل ذلك بفارغ الصبر.

جلس يشرب الشاي لغاية ما سمع الباب وهو يفتح والتفت ونظر من فوق حافة المقعد الكبير ورأى دماغها وجزءا من صدرها هناك عند مدخل الحمام، وسألها لماذا لا تضع عدسًا أصفر بدلًا من الأرز على الفول الذي تقوم بتدميسه؟

وهي قالت:

«رز إيه وعدس إيه؟».

وهو شعر بالألم في رقبته وكتفيه لأنه كان ينظر إلى الخلف وهو قاعد. لذلك اعتدل بحيث لم يعد يراها وقال:

«عدس أصفر».

وقالت:

«على الفول؟».

قـــال:

«آه».

أخبرته أنه طول عمره وهو يأكله بالأرز:

«جاي بعد تلاتين أربعين سنة تقول عدس؟».

وهو شرح لها كيف أنه عندما طلب منها قبل ثلاثين أو أربعين سنة أن تضع عدسًا أصفر بدلًا من الأرز، أخبرته أيامها أن الأرز أفضل، وهي عندما أخبرته بذلك تصور أنها تفضل الفول بالأرز وتريد أن تأكله هكذا، ولذلك تركها تعمله بالطريقة التي تحبها، لكن بما أنها لم تعد تأكل من الفول، لذلك هو يسأل لماذا لا تضع العدس الأصفر بدلًا من الأرز الأبيض. وحقيقة الأمر أنها سمعته لغاية ما خلص من كلامه وهي واقفة مكانها ثم دخلت حجرة النوم ولم يعد يراها. اعتدل في قعدته وراح يتفرج على التليفزيون ثم بدأ ينام وهو قاعد.

عندما عملت قدرة الفول الأخرى جلست وأكلت منها، ولما رأته سألته عن رأيه في الفول وقال إنه معقول مع أنه أكل جبنًا أبيض ولم يأكل منه، قالت:

«إلا معقول؟ ده طعمه النهاردة زي الزبدة».

وأخبرته أنها عملته هذه المرة بطريقة جديدة تمامًا، وبينت له كيف أنها وجدت عندها بقية من العدس الأصفر، وفكرت أن تجرب

وتضعها بدلًا من الأرز الأبيض، وفعلًا وضعتها بدلًا منه، واكتشفت أن ذلك جعل طعمه:

«زي الزبدة».

وهو وقف سمعها حتى انتهت من الكلام، ثم أخبرها أن طعم الفول هذه المرة كان جميلًا جدًّا، وأن هذا كان رأيه دائمًا في العدس الأصفر. وهي تطلعت إليه وبان عليها أنها فوجئت بهذا الكلام، ولم تعلق بشيء.

٧. كـان يعتقد

كان يجلس على الكنبة يتفرج على التليفزيون وهو يريح ظهره إلى المسند الخلفي، ساقه اليمنى مدلاة وفي نهايتها فردة الشبشب، وساقه اليسرى مطوية تحته. كان يبدو مشغول البال وشعر دماغه الأبيض منكوش ويتحدث مع نفسه قليلًا. وفي ذلك الوقت بالضبط كانت هي تدفع ستارة البلكونة وتدخل مختفية تحتها. ثم بدأت تظهر في قلب الصالة وهي تضم كومة الهدوم الملمومة بينما الستارة تتراجع فوق رأسها وتقع وراء ظهرها. ولما وقفت أمام مدخل الحجرة الجانبية وسألته إن كان يريد أن تضع له الطعام الآن أو ينتظر حتى تنتهي من ترتيب الغسيل؟ فكر قليلًا وقال:

«عمومًا، أنا مش جعان قوي، وإن كنت أعتقد..».

وهي قاطعته:

«هو انت لسه حتعتقد؟».

«إزاي يعني؟».

«يعني ما زهقتش من الكلمة دي؟».

وحاولت حتى تمكنت من الدخول بحملها من باب الحجرة المفتوح.

في البداية استغرب بينه وبين نفسه من هذه الطريقة غير الودية في الكلام وفكر أن شيئًا ما قد حدث. ثم رجع فكر أن هذه التقلبات من الأشياء المعروفة عنها. وتساءل إن كان يقول هذه الكلمة فعلًا أكثر من اللازم؟ ولم يستطع أن يمنع نفسه من الغضب وهو يجيب قائلًا: وافرض يا أخي؟ افرض أنها على المستوى الشخصي عندها ضيق من «أنا أعتقد»؟ ألم يكن واجبًا عليها أن تلفت نظره بطريقة ألطف، خصوصًا أنه عندما قال أنا أعتقد كان يقولها هذه المرة للتليفزيون وليس لها؟

وأنزل ساقه المثنية وبحث بها عن فردة الشبشب ولبسها واتجه إلى مدخل الحجرة الجانبية ووقف. كانت تطوي قطع الغسيل الجافة وترصها على السرير ناحية اليمين، بينما كومة الغسيل ناحية اليسار، وبينهما رأى نصفه تقريبًا في مرآة الدولاب المفتوح وراءها من الجنب، وتحرك ناحية اليسار قليلًا حتى يرى نفسه كله ولكن من دون ساقيه. وسألها إن كانت غاضبة من كلمة:

«أنا أعتقد».

وهي تركت ما بيدها وقالت إنه ليس معقولًا أن يظل طول النهار وهو عمال يعتقد.

قال:

«هو انا باقولها كتير والا إيه؟»

«كتير. إنت كل كلامك أعتقد. كل حاجة لازم تعتقد. قدام التليفزيون أعتقد. فلوس الإيجار أعتقد. العيش أعتقد. فاتورة الكهرباء أعتقد. التليفون أعتقد. نور السلم أعتقد. الزبال أعتقد. البواب أعتقد. يعني مفيش حاجة تحصل إلا وانت أعتقد».

وهو سمعها حتى انتهت من كلامها وشعر بنوع معين من الحرج وبأن قلبها أسود وقال:

«يا ساتر؟ دا أنتِ فاكره كل حاجة».

وأخبرها أن أي إنسان في الدنيا يفعل مثل هذا، ويقول أعتقد دون أن ينتبه، تأكدي أنه يفعله بسلامة نية، ولا يقصد شيئًا سيئًا أبدًا. وهي قالت فيما يشبه الاعتذار إنها لا تقول هذا الكلام من أجل نفسها أبدًا، وإنها يا ما تحملت، ولكنها تقوله من أجله هو، لأنها أثناء وجود أي ضيوف:

«بابقى قاعدة في نص هدومي».

قال وهو ما زال يرى نفسه من دون ساقين في مرآة الدولاب المفتوح وراءها:

«معاكي حق طبعًا».

واستدار عائدًا إلى مكانه. وبعدما قعد تجاهل الناحية التي فيها باب الحجرة الجانبية المفتوح، ورفع ساقه اليسرى وطواها تحته. وانشغل بالفرجة على صورة زفاف سليمان وهي معلقة على الجدار.

٨ـ الحجرة الأخرى

أثناء مروره أمام الباب المفتوح وجدها ما زالت نائمة في الركن الداخلي من حجرة الأولاد شبه المعتمة وهي مغطاة كلها وعلى رأسها مخدة. كانت ضئيلة وغير واضحة، ولكنه كان قادرًا على معرفة إن كانت تحت الغطاء أم لا.

منذ تزوج الولد الكبير وذهب ليعيش بعيدًا، ومنذ تزوج الولد الصغير وذهب ليعيش بعيدًا وهي تنام في حجرتهما. كانت تفتح النافذة الكبيرة وتهويها وترتب سرير كل واحد وكذلك دولابه الصغير. وبين حين وآخر كان يلمحها وهي واقفة تتفقد ما تركاه من ثياب البيت أو تضع بعضها في الغسالة أو تعطيها للمكوجي. وكان يلومها عندما يراها واقفة أمام الولد وزوجته إذا امتد بهما السهر وأوشكا على الرحيل، ويسمعها وهي تقول:

«ما تخليكوا الليلة دي يا سليمان، أو، ما تخليكوا الليلة دي يا أشرف، حاجيب جلابية لهدى، أو لسامية، وانت هدومك مغسولة وزي الفل».

وتمد يديها تعرض الهدوم. وكان سليمان، أو أشرف يقول:

«على إيه بقى يا ماما. نروح بالمرة».

وبعد انصرافهما كان يقول لها:

«أنا من رأيي إنك ما تطلبيش من حد فيهم يبات. اللي عاوز يبات يبات واللي مش عاوز هو حر».

وكانت تقول:

«هو أنا اتعلقت في رقبته. ما اللي يبات يبات واللي ما يباتش ما عنه ما بات».

وإذا نامت يوم السبت في سرير الولد الكبير تنام الأحد في سرير الولد الصغير. وهو انتبه إلى أنها نادرًا ما نامت إلى مثل هذا الوقت من اليوم. وخطا داخل الحجرة وانحنى لكي يرى تردد نفسها تحت الغطاء ورغم أنه ظل محنيًا عليها محدقًا في المكان الذي توجد بطنها تحته والذي يجب أن يرتفع وينخفض إذا تنفس الإنسان إلا أنه لم يلحظ أي حركة وقال في سره:

«مصيبة يا واد يكون جرى لها حاجة».

وغادر الحجرة. اتجه إلى الصالة ومنها إلى المطبخ، وأثناء مروره ألقى نظرة سريعة على شاشة التليفزيون المفتوح ووضع البراد على البوتاجاز ولقم الكوب بالشاي وعاد إلى الصالة. اقترب من الحجرة وأطل من بعيد ربما تكون تقلبت على ظهرها أو جنبها الآخر، ولكنها كانت على الوضع الذي تركها عليه منذ قليل. لو كان حدث شيء سيتصل بالأولاد طبعًا. ولكن ماذا سيقول لهم؟ وفكر أن أحسن شيء هو أن يتمالك أعصابه ويتكلم بصوت هادئ ويقول للولد:

«إنت فين؟».

والولد سيقول مثلًا:

«أنا في الحتة الفلانية».

أو يقول:

«فيه حاجة والا إيه؟»

حينئذ يقول هو:

«أبدًا، أصل امك تعبانة شوية».

ويقفل الخط.

طيب وبعد ذلك؟ لا هو ولا الأولاد يعرفون ماذا يفعلون. سوف يتصل بشقيقها أو يطلب من أحد الأولاد أن يتصل به لأنه خاله. وانتبه إلى أن رقم تليفون شقيقها ليس معه. وفكر أنه سوف يحصل عليه ويقيده في الدفتر الذي يضعونه على المنضدة الصغيرة. وتذكرها أيام ما كانت شابة جميلة لا تكف عن الضحك وترافقه وهي ترتدي البنطلون القطيفة، وصعبت عليه جدًّا وشعر بالحزن من أجلها وكادت الدموع تنزل من عينيه وقال:

«يا عيني يا إحسان».

وقام دخل الحجرة الأخرى وارتدى القميص والبنطلون وفكر أن ينزل يصرف المعاش من ماكينة الصرف القريبة ويعود، وإذا وجدها نائمة سوف يهزها بنفسه، وانتهى من شرب الشاي وربط فردة الحذاء الأخرى وسمع صوتها البعيد:

«إنت خارج والا إيه؟»

وقال:

«رايح اصرف المعاش».

وكأنما اتجهت هي إلى المطبخ، واتجه هو إلى الباب.

٩- حالة

بدأت الحالة عندما كانت تقف وحيدة في آخر حجرة الأولاد من الناحية اليسرى، وجاء هو وظل واقفًا في المدخل المفتوح وراءها من الناحية اليمنى. ثم التفتت وفوجئت به وصاحت:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

ووقع ما كان في يدها وتهاوت جالسة على حافة الفراش وعيناها مفتوحتان عن آخرهما. وهو استدار وغادر المدخل إلى الصالة، وجلس يبتسم ولا يستغرب مما حدث لأن أي إنسان معرض لهذا الموقف.

ولكن الأمر لم يتوقف عند هذه المرة.

أصبحت، منذ ذلك اليوم، كلما نظرت وصادفته أمامها أو وراءها في أي مكان من الشقة، تفاجأ به وتضرب بيدها على صدرها أو يصفر وجهها وتفقد النطق لفترة من الزمن. ولم يكن يعرف ما يفعله. وعندما احتج، مرة، قائلًا:

«الله، يعني أعمل إيه؟».

قالت:

«لما تكون داخل والا خارج، اعمل حس».

«يعني كل ما أكون داخل هنا أو هناك، أقول إحم أو أقول دستور والا إيه؟».

وهي تطلعت إليه باستنكار، بينما كان يفكر بينه وبين نفسه أنه لا توجد قوة في العالم كله تستطيع أن تجبره على أن يقول «إحم» أو يقول «دستور» بينما هو يمشي من مكان إلى آخر داخل بيته.

وانشغل باله بهذه المسألة لفترة ثم انتهز فرصة جلوسه من دون فرجة على التليفزيون وراح يراجع طبيعة حركته داخل الشقة حتى يتحكم بها ويضع حدًا لهذه المشكلة.

هو عادة يقوم من النوم قبل أن تقوم هي. فهي تسهر أمام التليفزيون تتفرج وتلف ورق الكرنب على الأرز أو تحشي قرون الفلفل التي يحبها وأصابع الكوسة أو تعد أي طعام لليوم التالي لأنها لا تنام إلا بعد أن تصلي الفجر حاضرًا، وهو بعدما يقوم من النوم يقعد في الصالة يفطر ويتناول العلاج ويتفرج، ويقضي معظم وقته جالسًا في مكان واحد يتابع كل المحطات الإخبارية ثم يركز على الأفلام الأجنبية، ولكن هذا لا يمنع أبدًا أنه، حتى بدون وعي منه، ممكن يغادر الصالة ويتمشى لغاية الحجرة القريبة، أو يتمشى لغاية الحجرة الأخرى، وقد يقف أمام الركن حيث صفوف الكتب التي تركها الأولاد. يتناول هذا الكتاب، أو يتناول الكتاب الآخر ويقلب فيه. يقرأ سطرًا أو عدة أسطر ويعيده ويخرج، قد يعود إلى مكانه ويقعد، أو يذهب إلى البلكونة يأخذ الشاي في الشمس ويتفرج على الأشجار فترة من الوقت،

أو يتجه إلى المطبخ يفتح الحلل ويرى ما بداخلها، أحيانًا يكون فيها شيء مطبوخ أو مسلوق، وأحيانًا تكون الحلة مغسولة وموضوعة فارغة على عين البوتاجاز وعليها الغطاء وكأن بها نوعًا من الطعام ويقول: «هئ. بتضحك على نفسها»، وأحيانًا كان يفتح الثلاجة يأخذ قطعة من الجبن أو حبة من الطماطم يغسلها ويأكلها، أو يفتح غطاء سلة الزبالة يحاول أن يبصق فيها. كانت هذه هي الحركة العامة ـ على ما يذكر ـ التي يقوم بها داخل الشقة. وبالأمس كان يجلس مختفيًا في المقعد الكبير في أول الصالة، وقامت هي من النوم وغادرت الحجرة ومشت من وراء هذا المقعد وتقدمت ثم انحرفت يمينًا في طريقها إلى المطبخ، والتفتت وفوجئت به جالسًا داخل المقعد وشهقت، ووقفت تستند على المقعد الآخر وهي تلهث، ولما التقطت أنفاسها قالت:

«أنا حتجيلي سكتة قلبية».

وقد أثرت فيه هذه الكلمات تأثيرًا قويًا وهو قاعد. وفكر أن الموضوع ليس بسيطًا كما اعتقد الأولاد بعد ما حكى لهم، لأن الإنسان كلما تقدم في العمر فوجئ بأشياء لم تكن في باله أيام الشباب. واليوم شعر بحركتها بعدما قامت من النوم وهو في الحجرة الصغرى، وراح يطل بدماغه من صدغ الباب باحثًا عنها. لم تكن في الصالة. اتجه إلى الحجرة الكبرى وأطل بدماغه أيضًا من صدغ الباب ولم يجدها، وأدرك أنها في المطبخ، حينئذ جلس في المقعد الكبير بالصالة وأمسك بكوب الشاي الفارغ وراح يضرب جدرانه الخالية بالملعقة الصغيرة ويصدر رنينًا متصلًا حتى ينبهها إلى مكانه، راح يكرر ذلك مرارًا وعيناه مثبتتان على مدخل المطبخ المفتوح حتى فوجئ بها تأتي على الخبط من الحجرة الكبرى وتسأله:

«بتعمل إيه؟»

وقال:

«أبدًا».

وترك الملعقة داخل الكوب واعتدل على المقعد.

١٠ـ أصوات ليلية

«آه يا امه».

هكذا يتردد صوت الرجل المتعب آخر الليل في أرجاء قاعة رعاية القلب المقسمة بجدران من القماش. وتمر فترة:

«آه يا امه».

ويفتح الأستاذ خليل عينيه منتبهًا للصوت الذي يحسه قريبًا ولا يعرف مصدره:

«يا عم بكره تخف».

ولكن أحدًا لا يعلق.

ويعم الصمت،

وينام.

عندما شعر بالتعب أول الليل أصر على أن يذهب وحده إلى المستشفى ولكنها أصرت أن ترافقه واتصلت بالولدين. لقد ظلت تنزل الدرج سلمة سلمة وتتكئ على الدرابزين حتى خشي أن يموت

قبل خروجهم إلى الشارع والبحث عن تاكسي. وهناك أجلسوه على مقعد بعجل ودفعوه في الطرقة الطويلة وهو مكسوف من الناس وهي تراه، حتى أدخلوه حجرة متوسطة بينما تبعتهم هي على مهلها. كان بالحجرة سرير يتكئ عليه رجل يلعب قليلًا بقدمه المفرودة في البنطلون الرمادي والقميص المقلم، وكانت ترافقه سيدة في منتصف العمر وكامل زينتها تجلس على مقعد عند رأس السرير تحت النافذة المغلقة من أسفل والمفتوحة من أعلى. كانت منحدرة على المقعد بنصفها الأسفل وتشبك ذراعيها تحت صدرها الكبير وتضع ساقًا على ساق. والأستاذ خليل لاحظ أنها تكشف مساحة كبيرة من فخذيها على نحو غير مألوف في مثل هذه الظروف، ثم تعامل مع المقعد المتحرك باعتباره مقعدًا عاديًا لذلك وضع هو الآخر ساقًا على ساق وراح يهزها هزًا خفيفًا. وعندما جاءت الحاجة وجلست في صمت لم يهتم لأمرها بطريقة ملموسة جدًّا وكأنها ليست معه. الرجل ورفيقته أيضًا لم يهتما بحضورهما، بل إن المرأة راحت تواصل حديثها بصوت هادئ، بعد ما انزلقت أكثر على مقعدها:

«عمومًا القسطرة اللي انت حتعملها دي، ناس كتير جدًّا بتموت منها».

والرجل سمعها بينما يتطلع إليها بعينين مفتوحتين، ويمسح بكفه على ركبتة المثنية.

وهي أضافت بعد ما عدلت من وضع ذراعيها على صدرها:

«ده شيء مؤكد، أنا اعرف حالتين تلاتة ماتوا فعلًا».

واندهش أبو سليمان كما استغربت أم سليمان من مثل هذه

الطريقة في الكلام ما بين هذا الرجل وهذه المرأة. ولم يمر وقت طويل حتى استدعوا هذا الرجل ونزل من السرير والمرأة وقفت تسوي ثيابها وتجذبها إلى أسفل، وغادرا الحجرة على أقدامهما وأبو سليمان لم يره بعد ذلك أبدًا.

بعد حوالي الساعة استدعوه لعمل القسطرة، وفي ذلك الوقت وصل سليمان وأشرف وهما في حالة من الهلع ولكنه طمأنهما بنفسه. وكان الطبيب يثرثر طيلة الوقت ويبدي احتجاجه من حالة الشرايين ثم نقلوه لكي يقضي ليلته بحجرة المتابعة، وهو أصر أن يعود الولدان بأمهما إلى البيت ويرجعا غدًا لكي يعودا به إلى البيت. وكان الرجل الذي في العنبر لا يزال يتوجع ويقول:

«آه يا امه».

حينئذ سحب جزءا من الستارة التي تفصل بينه وبين الحجرة الصغيرة المجاورة بحثًا عن صاحب الصوت ووجدها خالية ومرتبة.

ترك حافة الستارة من يده فعادت إلى مكانها وأغلقت الفتحة، وجاءت الممرضة لتعلق له المحلول ولكنه طلب أن يذهب إلى دورة المياه أولًا. غادر الفراش ورأى الممرضات وهن يقمن بالعمل أمام ستائر القماش المضاءة من الخارج، ولاحظ أن حركتهن بطيئة ويتكلمن من دون صوت، وواحدة تجلس بعيدًا وراء الطاولة وأمامها صفوف طويلة من القوارير الصغيرة. اتجه إلى دورة المياه وتبول بولًا متقطعًا وانتظر حتى آخر نقطة وخرج. مشى بطيئًا ثم صعد سريره واستلقى على ظهره.

بعد فترة عادت الممرضة لتعلق له المحلول وتعطيه الدواء وهو نصف جالس. وعدلت المخدة وراء ظهره.

وينام.

ويسمع صوت امرأة ريفية تتكلم وتقول:

«غطي رجلك علشان رجلك وارمه، والتليفزيون كان شغال».

والصوت يرد عليها ويقول:

«إنت مين يا ست؟».

«أنا امك يا مرسي».

«عامله إيه يا امه؟».

«أنا بخير يا خويا».

«كنت عاوزك تروحي لخالي مصطفى، وابنه عبد الرحيم، قبل يوم الخميس، لأنه مات يوم الثلاث».

«إن شا الله يا مرسي».

«لكن عبد القادر مش حيموت. الكلام كان زمان».

«طيب ارتاح إنت يا مرسي».

«وعاوز مِنِك خدمة».

«قول يا خويا».

«ما تجبيش سيرة غير يوم الاثنين، وتدي الموبايل للبنت ابتسام».

«حاضر».

«الموبايل للبنت ابتسام، لكن الكارت للبنت ابتسام».

«طيب يا خويا».

والأستاذ خليل يقول:

«الراجل بيخطرف؟»

ويسمعه يواصل:

«أقعدي كلي لقمة».

«عندك إيه يا مرسي؟».

«عندي جبنه نستو، وفول حراتي».

وأبو سليمان يسمع المرأة الريفية وكأنها تفتح مثلث الجبن وتمضغ الفول الحراتي بقشره، ويروح في النوم، ويلمح جسد الممرضة وهو يتحرك داكنا خلف الحاجز القماش لتطل عليه بوجهها من الفتحة الضيقة ويدها البيضاء تزيح القماش جانبًا، ويسألها عن هذا الرجل الذي يتوجع طول الليل، والممرضة تضحك في صمت ولا تجيب. وبينما يتراجع، يجيئه الصوت:

«آه يا امه».

وينام.

١١ـ طعمية منزلية

تحدثت في التليفون وهي قاعدة على حافة الكنبة، ثم قامت معتمدة على يديها واتجهت إلى المطبخ ووقفت وقالت إن أم عزت البقالة توفيت، وسألته:

«فاكرها؟»

قال:

«فاكرها طبعًا».

وتذكرها في الوسعاية وهي واقفة بقامتها الضئيلة، لا يظهر منها غير نصفها الأعلى في فتحة الدكان الصغيرة المربعة ومن ورائها البضاعة على الأرفف المزدحمة بعلب السلمون والتونة والصابون والملح وزجاجات الزيت والخل والسبرتو وقوالب الحلاوة والجبن وغيرها من الاحتياجات. يتذكرها بوجهها العجوز تحت أصابع اللانشون الغليظة الصفراء والبسطرمة المتربة الحمراء المربوطة في الخيوط المدقوقة بالمسامير في عارضة هذه الفتحة الصغيرة المربعة. تنتهي من البيع لتعاود الوقوف شاخصة إلى

الجانب الآخر حيث الدكان الكبير بفتحته الواسعة التي تضيء المكان كله بلمبات النيون المتقاطعة والتي صفت على جانبيها الكراتين المغلقة وعلب السمن الصناعي المرصوصة، وترى ابنها عزت وهو يدخل ويخرج يعيد ترتيب البضاعة وقد شمر جلبابه من الجنب عن بنطلونه الجينز القديم. وهو بعدما تذكر أم عزت على هذا النحو دخل وراءها المطبخ وهو يفكر أن أم عزت رغم أنها امرأة كركوبة فإنها كانت أصغر منه في السن، ووضع يده على النملية وقال إنه كان يفضل دائمًا أن يشتري من أم عزت، رحمة الله عليها، لأنه كان يجد لديها ما لا يجده عند ابنها عزت مثل الشمع ورباط الحذاء والورنيش الأسود والورنيش البني وبكر الخيط وإبر الخياطة وأي حاجة يريدها، وهي قالت بينما تنتشل الخضراوات المغسولة تحت الحنفية التي في الحوض إن الدكان الصغير هذا هو الذي خرج منه الدكان الكبير وإن أم عزت كانت تفتحه من الفجر حتى آخر الليل. حينئذ ظهر عليه الأسى وقال:

«بتعملي إيه؟».

قالت:

«طعمية».

قال:

«تاني؟»

أخبرته أنها اتصلت بأم حسن وأخذت منها الوصفة بالضبط،

وراحت تعد الخضراوات التي أمامها وتشير إلى كل نوع بإصبعها النحيل وتقول:

«الشبت. الكسبرة. البقدونس. الكرات. البصل الأخضر. الثوم».

ولما انتهت أخبرته أنها في المرة الماضية لم تقم بتصفية الفول المدشوش من الماء، وأنها سوف تصفيه هذه المرة وتضع كل شيء في «الكبة» وتضربه في بعضه، وهو سمعها بينما ينظر إلى كل صنف من هذه الأصناف وخرج إلى الصالة وجلس يتفرج على الفيلم الأجنبي. كان من الأفلام التي يحبها. وعندما كان صانع الكمان يحز ذراع زوجته الشابة المتوفاة بالسكين ويستقطر قدرًا من دمها في الإناء الزجاجي، ثم يضيف إليه سائلًا ويرجه ليخففه ويغمس فيه الفرشاة ويطلي خشب الكمان الخام بدم زوجته المخلوط. بينما كان صانع الكمان الباكي يفعل ذلك جاءت تمشي على مهلها وتحمل الصينية البلاستيك وتضعها بينهما على المنضدة، كان طبقًا به جبن أبيض وآخر به باذنجان مخلل وشرائح طماطم وخيار إلى جوار كيس العيش الذي سخنته على البوتاجاز، وكانت أقراص الطعمية في الطبق الواسع لها رائحة شهية وحواف غير منتظمة ومدببة وبينها أقراص كبيرة وأخرى صغيرة وأقراص ممتلئة وأخرى مسطحة أو طويلة وقالت:

«إيه رأيك بقى؟»

قال:

«حلوه قوي».

وقبل أن تشرع في الأكل بحثت عن الريموت وقالت:

«بتتفرج على حاجه؟ والا أحول».

قال:

«حولي».

وتمنى أن يعيدوا عرض الفيلم مرة أخرى. وهي حولت القناة إلى المسلسل العربي وانشغلت بالطعام وهي تقول:

«أصل انا متابعاه».

وكان هذا بالضبط ما يشغل باله معظم الوقت ويصيبه بالضيق أحيانًا. تسأله ثم تغير المحطة وتتفرج وهي تأكل أو تتكلم في التليفون مع عيالها وتنسى نفسها وهي تفعل ذلك، وفي هذه الأوقات يكون عنده يقين بأنها طول عمرها وهي قليلة الإحساس بهذه المسألة بالذات. وبعدما ينتهي المسلسل وتقوم كان ينسى ذلك ويقول بأن المسألة ليست قلة إحساس ولكنها مسألة عدم إدراك من ناحيتها وأن الأمر يتطلب موقفًا حاسمًا من ناحيته. وقالت فجأة:

«الله يرحمك يا أم عزت».

وهو هز دماغه وقال إنها كانت أصغر منه. ولما قالت إنها أعمار قال لها:

«طبعًا أعمار. تعاشر تعاشر يا بن آدم ومسيرك تفلّق».

وتوقفت يدها بقطعة الباذنجان وهي في طريقها إلى فمها وقالت:

«حد يقول تفلق؟ الناس تقول تعاشر تعاشر يا ابن آدم ومسيرك تفارق».

وهـو راح يمضـغ اللقمة ويخبرها بأنه قال تفارق ولم يقل تفلّق.

١٢ ـ أبيض وأسود

كانت تجلس على الفراش الكبير مائلة في الحجرة شبه المعتمة بجسدها المنهك وشعرها الأبيض المربوط، عندما ارتفع صوت جرس التليفون في الفيلم المعروض بالتليفزيون في الصالة. وهي سمعت هذا الجرس وقالت:

«حد يرد على التليفون يا ولاد».

ومالت إلى جانبها الأيمن، ولم تقم بعد ذلك أبدًا.

وفي الصالة، كان هو يجلس بجسده النحيل في جلبابه النظيف يتفرج على الفيلم الأبيض والأسود المعروض في التليفزيون، وعندما ضرب جرس التليفون وسمعها تقول:

«حد يرد على التليفون يا ولاد».

رأى عباس فارس يقوم كمن يلبي نداءها، ويضبط الطربوش على دماغه ويرد على التليفون الموجود على المكتب البعيد، وهو ضحك واتجه إلى الحجرة لكي يخبرها أن عباس فارس سمع كلامها

ورد على التليفون، ولما وقف في فتحة الباب وجدها في العتمة الخفيفة وهي هكذا، اقترب منها ثم تراجع مسرعًا وراح يجري على سلالم البيت بلحيته النابتة البيضاء وينادي على الجيران. وظل في الخارج يطلع السلالم وينزل السلالم، ويراهم وهم يدخلون الشقة ويراهم وهم يخرجون من الشقة ويلمح الأولاد وهم ينتهكون مقتنياته القديمة ولا يقدر على ردعهم. وعندما جاء الأولاد بزوجاتهم وبعض المعارف القدامى نزلوا بها ملفوفة في القماش وشم رائحة الكولونيا والصابون أبو رائحة، وراقبهم من بير السلم وهم يحملونها ملفوفة ويضعونها في الصندوق الخشبي ثم يغطونه. ولما تحركوا إلى الخارج نزل وراءهم ووقف في مدخل البيت وتابعهم وهو في ذهول ولاحظ بعض الأولاد يتفرجون في صمت. والسيدة البيضاء تمهلت أمامه مباشرة بقامتها الكبيرة البيضاء ونظرت إليه بعينها القريبة المفتوحة تحت حاجبها الرفيع المقوس ثم رفعت إصبعها عاليًا وأشارت جانبًا إلى الجنازة التي تبتعد وهو أجهش فجأة وتبعهم على مهله وهو يلهث ويتوقف. وعندما وصل الجامع كانوا دخلوا يصلون عليها وجلس على سلالم المدخل وأخذ حبة من الشريط الذي يحتفظ به في جيب جلبابه ووضعها تحت لسانه. وفي المساء وقف في مدخل السرادق الذي أقاموه في الحي القديم وإلى جواره ابنه الكبير وابنه الصغير وأشقاؤه ومن تبقى من أصدقاء صباه، وهم ما لبثوا أن أخذوه من تحت ذراعيه وهو يتطوح ثم يمسك نفسه وأجلسوه على الكرسي لأنه تعب من الوقفة طيلة النهار وأحضروا له ساندوتش كبدة من عند زغلول بائع السمين ولكنه رفض تمامًا وقال إنه سيجلس فقط. وعندما جلس ظل صامتًا لفترة ثم حكى لمن

يجاوره أنها كانت تطلب منه أن يرد على التليفون مع أن التليفون الذي ضرب كان في الفيلم وليس في الصالة.

كان يروي الحكاية كلها لمن يجلس إلى جواره أو يربت على كتفه معزيًا، ثم يلتفت إليه بعينين دامعتين، ويبتسم.

١٣- إبرة الخياطة

فتح ضلفة الدولاب ووقف يتأمل هدومه التي لم يعد يلبسها إلا في المناسبات.

كانت هناك بنطلونات وسترات قديمة في الشماعات الخشب والشماعات البلاستيك وكرافتات مبرومة على العصا الأفقية التي علقت فيها هذه الشماعات. وكان ينوي من زمان أن يهدي بعض هذه السترات مع بنطلونين أو ثلاثة لأشقائه ولكن ما عطله أنه لم يكن يعرف أي شقيق ممكن أن تلائمه هذه السترة وأي شقيق ممكن أن تلائمه السترة الأخرى. وهو قرر أن يعطي لكل واحد هديته من وراء الآخر بسبب الحساسية الموجودة بينهم. وهذا معناه أن يخرج الهدوم كلها ويضعها أمامه ويفكر في الموضوع وهو قاعد، ولكنه يعرف أنه لا يفكر في مسألة الهدوم وأشقائه إلا عندما يكون واقفًا أمامها والدولاب مفتوح، وهو ما إن يغلقه حتى ينتهي الموضوع بالنسبة له تمامًا. وعندما يذهب للقعاد لا يفكر إلا في الأشياء التي تخطر على باله فقط، وحاجات مثل البنطلونات وأشقائه والسترات القديمة لم يحدث أن خطرت على باله وهو قاعد أبدًا. ورغم أنه كان يشم

رائحة القماش المخزون وبقايا النفتالين وهو واقف فإنه لم ينصرف بل بدأ يفتش جيوب السترات الداخلية والخارجية وكذلك جيوب البنطلونات لأنه لم يكن فتشها من زمان. وعندما جذب البنطلون الداكن لكي يستطيع أن يدخل يده في جيبه الأيمن وهو على الشماعة لاحظ أن تحت الجيب يوجد فتق في الخياطة يمتد لمسافة لا تقل عن ثلاثة أصابع أو أربعة، حينئذ جذب الشماعة البلاستيك من مكانها وقرر أن يقوم بخياطته، وأغلق الدولاب وهو يشعر بالحيوية لأنه لم يقم بخياطة أي شيء من أيام ما كان شابًا، ورأى قامته النحيلة وشعره الأبيض في المرآة الطويلة وكذلك وجهه الذي بدا عجوزا أكثر من المعتاد وأرجع ذلك إلى أنه لم يعد ينام جيدًا. خرج إلى الصالة وجلس على المقعد الكبير وقلب رجل البنطلون وبحث حتى وجد المكان المفتوق وهيأه على ركبته، وفتح درج المنضدة البنية المنخفضة أمامه وأخرج علبة الشيكولاتة الصفيح برسوماتها الباهتة ورفع الغطاء وأخذ بكرة الخيط الأسود والإبرة ولبس نظارة القراءة وراح يحاول أن يلضم الخيط في الإبرة من قبل صلاة الظهر بفترة كافية إلى ما بعد صلاة العصر من دون فائدة. وفي هذه الأثناء كان قد قام وتمشى لغاية المطبخ وعاد وكان ظهره آلمه وكان رفع ذراعيه ومال بكتفيه إلى الوراء وكان انحنى بوسطه إلى الأمام ووضع جبهته على علبة الشيكولاتة وكان طرف الخيط دخل مرة في ثقب الإبرة وعندما تركه ومد إصبعيه لكي يسحبه من الناحية الأخرى تحركت البكرة قليلًا في حجره وجذبت الخيط من الثقب ولم يتكرر ذلك أبدًا، وبطنه آلمته جدًّا واعتدل وأرجع ذلك لعدم وجود الأسنان لأن من ميزة الأسنان أنه ممكن أن يضغط على طرف الخيط بسنتيه

الأماميتين ويجذبه فينقطع على نحو غير مستو وحينئذ يبلل إصبعيه ويبرمه بينهما ويجده أصبح مثل الشوكة المدببة أو سن القلم المبري أو سن الإبرة نفسها ويدخله بسهولة في الثقب ويسحبه من الناحية الأخرى ويعقده ويخيط فتق البنطلون. وفي هذه المرة كاد يبكي ولكنه توقف فورًا حتى لا ترتفع عنده نسبة السكر، وغرز الإبرة في البكرة وأعادها إلى علبة الشيكولاتة القديمة برسوماتها الباهتة وتركها أمامه ولم يضعها في الدرج.

١٤ـ هذا البراد الغريب

بعد رحيلها، كان كلما وضع شيئًا على البوتاجاز، حلة أو طاسة أو براد، ينساه والبيت كله يمتلئ بالدخان ويكاد يتسبب في مشكلة كبيرة ومنصور الذي اشتغل سمسارًا إلى جانب عمله كبواب ويتمشى طول النهار أمام العمارة وهو يتحدث في الموبايل يطلع على مهله يخبط على باب الشقة ثم يتصل بأبنائه ويقول:

«لازم تشوفوا حل يا أستاذ، بصراحة أنا مش مسئول».

وكان الأولاد يأتون ويعبرون لأبيهم عن انزعاجهم الشديد ويبينون له أهمية الانتباه وهو يقول إن هذا لا يحدث إلا قليلًا وأنه سوف ينتبه.. طبعًا.

واليوم قام متأخرًا وتناول العلاج الذي يأخذه على الريق ووضع البراد على البوتاجاز وغادر المطبخ إلى الصالة وبعدما فطر تناول العلاج الذي يأخذه بعد الفطور وفتح التليفزيون وجعل الصوت منخفضًا وجلس يتفرج بعدما قال لنفسه إن حزن الإنسان في قلبه وليس في التليفزيون، وقال إنها، رحمة الله عليها، كانت اعتادت أن تتركه يفتح التليفزيون ويتفرج سواء كان الراحل من أهله أو من

أهلها ولا يكون مهمًا في مثل هذه الأوقات إلا أن يكون الصوت منخفضًا. واستغرب لما قال رحمة الله عليها وشعر بالرهبة لأنه سلم هكذا بحقيقة موتها. بعد ذلك خيل له أن هناك ما يشبه الشياط واتجه بأنفه يشم ناحية باب البلكونة ثم يشم ناحية الشباك من دون أن يتذكر أبدًا أنه وضع شيئًا على البوتاجاز ولم يلبث أن لاحظ دخانًا يأتي من باب المطبخ وذهب وحدق بعينيه ورأى البراد وهو يتألق مثل الجمرة الحمراء في قلب السحب الكثيفة البيضاء وصاح:

«يا نهار اسود».

وأطفأ البوتاجاز وهو يبربش بعينيه وأسرع خارجًا يسعل ويفتح باب الشقة والشباك ويجذب ستارة البلكونة ويقول إنها حكاية غريبة وتمتم مرة أخرى «الله يرحمك يا إحسان». وبعدما جلس قليلًا دخل المطبخ ولاحظ أن بطن البراد صار في لون الفضة وعنقه به عدة ألوان متداخلة. حمله بالفوطة المطوية من أذنه وألقى به في الحوض وفتح عليه الحنفية وهو يبعد يده بسرعة لأن البخار المتصاعد كان ساخنًا جدًّا. واتجه إلى الثلاجة وفتحها ورأى الحلل الصغيرة التي وضعتها زوجة ابنه بعدما طبخت فيها وأخبرته أن يأتي بالطاسة ويغرف ثم يسخنها على البوتاجاز ويضعها في طبق وبعد أن ينتهي من الأكل يترك الطاسة والطبق في الحوض ولا يغسل شيئًا بنفسه أبدًا واكتفى بأن تناول حبة طماطم غسلها تحت الحنفية وخرج يأكلها و يتفرج على الفيلم الأجنبي حتى نام وهو قاعد وفتح عينيه على نور الصالة وانتبه إلى الأصوات التي تقول:

«إيه الحكاية يا بابا؟».

«مش قلنا نخلي بالنا يا عم؟».

وهو تطلع بشعره الأبيض وعينيه المحمرتين ورأى الولدين وزوجتيهما وقال:

«أبدًا والله».

وزوجة ابنه الكبير أعدت الطعام وزوجة ابنه الصغير أعدت المنضدة وجلسوا يأكلون بعضهم مع بعض ويتحدثون ثم جمعتا الأطباق ودخلتا المطبخ. وبعد ما غسلوا الأواني كلها وغسلوا أيديهم جلسوا في الصالة وأحد الولدين قال إن منصور اتصل بهم في البيت، وراح يقلد صوته ويقول:

«يا أستاذ، أبوكم بالصلاة على النبي مدخن الدنيا كلها. إلحقوه».

وراحوا يضحكون ثم ارتفع صوت صفارة تأتي عالية من المطبخ وهم نظروا إليه وابتسموا وأخبروه أن هذه الصفارة صادرة عن:

«البراد الجديد بتاعك. أول ما الميه تغلي، يروح مصفر على طول. وبالشكل ده انت تسمعه، واحنا نطمئن عليك».

وزوجة ابنه الصغير قالت إن كلها كم يوم:

«ونلاقي حل للحلل والطاسات اللي عندك».

والولد الكبير قال:

«ده شيء مؤكد».

وبعد انصرافهم دخل المطبخ وتفرج على البراد الجديد وهو

على البوتاجاز ووجده جديدًا وكبيرًا ومكورًا وله غطاء بقلب داخلي ومقبضه بني اللون، وهو تأمله في هذا المكان وشعر بالحرج من إحسان وحمله ووضعه على طاولة النملية وتناول البراد القديم من الحوض وأعاده إلى مكانه على البوتاجاز.

١٥ ـ استشارة منزلية

عندما فتح الباب، في المساء، وجده يقف بقامته القصيرة الممتلئة في الضوء الخافت. كان يتطلع إليه صامتًا وفي عينيه ما يشبه الابتسام وهو يقول:

«مساء الخير يا أفندم».

والأستاذ خليل تراجع وقال:

«يا أهلًا وسهلًا».

والرجل لم يجلس في ركن الكنبة إلا بعد أن جلس الأستاذ خليل في المقعد الكبير. وعاد يقول:

«أهلًا وسهلًا. اتفضل».

والضيف ربت بيده على صدره وعدل من وضع نظارته وابتسم:

«أنا آسف على الزيارة المفاجئة دي».

«بيتك ومطرحك».

كان يسكن في الناحية الأخرى من الطريق ويعرفان أحدهما الآخر من بعيد، وكثيرًا ما تصادف ورآه أثناء خروجه وهو يلم فرش سيارته المركونة أمام المبنى المواجه ويطبقه على سطحها، ثم يمشي ويفتح حقيبة السيارة من الخلف ويترك الغطاء مفتوحًا، ثم يعود يحمل الفرش المطوي ويضعه والأستاذ خليل كان يسمع صوت الحقيبة وهي تغلق. أثناء ما يفعل ذلك كان يرفع يده ويلوح له من هناك. إلا أنهما لم يتبادلا الكلام أو يتزاوروا من قبل. الأستاذ خليل لم يستطع أن يخمن السبب وراء هذه الزيارة وإن كان خمن لوهلة أن الرجل قد يطلب منه نقودًا لأي سبب من الأسباب وبدأ يفكر في صيغة الاعتذار: «والله موضوع الحاجة ما خلاش ورايا ولا قدامي». ثم لاحظ أن الرجل أكبر سنًا مما كان يظن وهو يراه في الأيام التي يتبادلان فيها التحايا عبر الطريق، وفي سبيله لمغادرة الصالة إلى المطبخ سأله:

«شاي والا قهوة، والا تاخد حاجة ساقعة وبعدين نشرب شاي والا القهوة؟».

قال:

«مفيش لزوم والله».

«لأ. ضروري».

«خلاص. يبقى شاي».

«والسكر؟».

«معلقة ونص، وأكون متشكر جدًّا».

ضرب الجرس ثلاث مرات لمنصور البواب أو لزوجته بما

يعني أن يرسلا له ابنتهما الصغيرة انتصار للقيام بعمل الشاي حسب اتفاقهما، وعاد ورآه يعيد طي الجريدة ويضعها إلى جواره على الكنبة. وما إن جلس حتى اعتدل الرجل ناحيته وقال:

«حضرتك قريت الجرايد امبارح؟».

نظر إليه وقال:

«بخصوص إيه يا ترى؟».

«شفت الخبر اللي مكتوب فيه إن الناس اللي بتشتغل في جنينة الحيوانات، بتاكل الحمير المخططة والثعالب، وبتاكل من الوحوش المفترسة والطيور اللي في الجنينة؟».

وجرس الباب ضرب وفتح ليجد البنت انتصار وطلب منها أن تدخل وتعمل كوبين من الشاي، وأن تضع في أحدهما ملعقة ونصف من السكر. ثم التفت إلى الرجل وأخبره أنه قرأ شيئًا مثل هذا.

والرجل قال:

«لأ. ده كان منشور فعلًا في الصفحة الأولى، وفي أكثر من جريدة».

والحقيقة أن الأستاذ خليل بعدما كان أخذ الخبر في سياق ما يقرأ ويسمع من أخبار هذه الأيـام، انتبـه الآن إلى أنـه أحـد الأخبار غير المعقولة وشعر بالشكر نحو هذا الرجل الذي نبهه إليه. ثم إن الضيف عاد وسأله:

«وحضرتك رأيك إيه في الكلام ده؟».

خليل قال إنه شخصيًا يعتبر مثل هذا الكلام، تحت أي ظرف من الظروف: «غريب جدًّا».

قال:

«طيب وبعدين؟».

جاءت البنت بصينية الشاي ووضعتها بينهما على المنضدة وانصرفت.

وكان الضيف ما زال يتطلع منتظرًا الأستاذ الذي قال بأن هذا، على العموم، ليس شيئًا جديدًا جدًّا، فقد تم الإمساك قبل فترة ببعض الجزارين الذين يبيعون لحم الحمير والكلاب النافقة، وأن الصحف نشرت صور هؤلاء الجزارين وهم يجلسون على الأرض وأمامهم هذه الحمير وهذه الكلاب وهي نافقة فعلًا. ورجال الأمن يقفون وراءهم في الصورة.

والجار الذي يعيش في المبنى المقابل هز رأسه رافضًا وقال:

«لو سمحت لي، هذا شيء مختلف، لأن الناس عندما أكلت الحمير والكلاب النافقة، أكلتها وهي تظن أنها تأكل جاموسة أو خروف أو كانت تظن أنها تأكل البقر، لكننا هنا أمام وضع مختلف. الناس بدأت الآن تأكل الحيوانات المتوحشة وهي تعلم أنها متوحشة وأنها تخص حديقة الحيوانات».

ثم طلب منه أن يلاحظ أنهم يستطيعون أن يمسكوا كلبًا حيًا ويربطوه بحبل ويذبحوه. «وكذلك الحمار العادي ممكن أن تربطه وتذبحه ولا يقاومك أبدًا، ولكن ما يدهشني أننا لا نستطيع أبدًا أن

نكتف حمارًا وحشيًّا أو أسدًا مثلًا أو زرافة أو أي حيوان مفترس ثم نذبحه ونأكله، هذا شيء صعب جدًّا.. والا انا متهيأ لي؟».

الأستاذ خليل قال من دون أن يلتفت إليه:

«مؤكد أنه صعب، وصعب جدًّا كمان».

«وبعدين، ما تآخذنيش، هي جنينة الحيوانات حتكفي مين والا مين؟».

وانشغلوا قليلًا بشرب الشاي والتفكير. والرجل قال:

«تفتكر، ممكن ياكلوا إيه بعد كده؟».

وخيل للأستاذ خليل أن الرجل بدأ يخاف، وانتبه فجأة إلى وجهه المدور الناعم وجسده الطري الذي يملأ ركن الكنبة، وخيل له أن الرجل اتسعت عيناه وتصلب فجأة كمن يتحفز للقيام ولم يعد طبيعيًا كما جلس في الأول. وهو بعدما رآه على هذا الحال لم يعرف إن كان هذا نوع من الخوف أو هو نوع من التأمل وابتسم في وجهه، والرجل تملى من الابتسامة وبدأ يسترخى مطمئنًا في موضعه وانتهيا من شرب الشاي. وعندما انصرف قام خليل وظل واقفًا في البلكونة حتى رآه بعدما خرج من الباب وراح يتلفت حوله في الليل وهو يعبر الطريق مسرعًا وينحرف وراء عربته المركونة تحت الغطاء ويختفي.

١٦ ـ قلــق

كان لديه إحساس قوي بأن دماغه لم يعد على ما يرام.

الأمر الذي عزز لديه هذا الإحساس أنه بعدما كان يمشي اليوم في الناحية اليمنى من الطريق، وجد نفسه يمشي في الناحية اليسرى دون أن يتجه بنفسه إلى هناك.

انتبه إلى ذلك وأبطأ من خطواته وراح يتلفت حوله مستغربًا حتى كاد يقع من الرصيف ولكنه ضبط نفسه. إنه يحب المشي في ناحية ويمشي فيها فعلًا ليجد نفسه بعد فترة غادرها إلى الناحية الأخرى من غير أن يقصد. هو متأكد اليوم أنه كان يمشي في الناحية اليمنى لأنها الناحية التي يدخل منها إلى الطريق الجانبي القصير الذي يوصله إلى البيت. أبو سليمان الذي امتلأت نفسه بالريبة مما يحدث معه واصل سيره في الناحية اليسرى وهو يترصد مدخل الطريق الجانبي في الناحية اليمنى البعيدة، وما إن صار أمام هذا المدخل حتى عبر ودخل البيت، وبعدما دخل البيت خلع ثيابه وجلس على المقعد الكبير وفتح التليفزيون وراح يتفرج ويفكر.

مع التفكير رأى أن ما يحدث معه غالبًا هو نتيجة لهذا الشيء

الغامض الذي يحسه داخل دماغه.. الشيء الذي يطن ويجعل يده تهتز بكوب الشاي ويجعله يتطوح على خفيف عندما يقوم واقفًا، وقادته هذه النتيجة المعقولة إلى لحظة من الإلهام قرر معها أن يعمل أشعة مقطعية على المخ. وما إن انتهى إلى مثل هذا الرأي حتى شعر بنوع من الراحة شبه الكاملة. هو لا يعرف شيئًا بالتفصيل عن هذه الأشعة المقطعية ولكنه يحتفظ لها في ذاكرته بنوع من الاحترام والثقة. وكرر لنفسه بقدر من الامتنان (أشعة مقطعية على المخ) وأعد حقيبته الصغيرة واتصل بالأولاد وقرر أن يعود للشقة القديمة لقضاء بعض الوقت. وركب تاكسيًا واتجه إلى هناك. فتح الباب ووضع الحقيبة على الكنبة وخرج. كانت عيادة الدكتور حسن قريبة من البيت، وفي طريقه عبر الوسعاية ورأى دكان المرحومة أم عزت ولاحظ أنه مغلق بينما الدكان الآخر مفتوح وابنها عزت غير موجود. وما إن تفادى الحفرة الممتلئة بالماء حول المحبس الحديدي الذي كان ظاهرًا ومربوطًا بقطعة من قماش ملون حتى كان في حوش البيت الذي تحتل عيادة الدكتور الطابق الأرضي منه. والدكتور حسن استقبله مبتسمًا وشبه واقف. وهو جلس على المقعد وقال:

«أنا عاوز اعمل أشعة مقطعية على المخ؟».

والطبيب قاده إلى السرير المعدني الصغير المنصوب وراء الستارة وجعله يعري بطنه وظهره وهو قاعد ويأخذ نفسًا ويخرجه ويكح. ثم جلس وراء مكتبه الصغير المزدحم وطلب منه أن يستمر على المهدئ الذي كتبه له. والأستاذ خليل شكره واتجه إلى الصيدلية المقابلة وسأل الصيدلي عن رأيه في الأشعة المقطعية على المخ والصيدلي قال:

«كويسة».

وهو فكر وقال:

«كويسة قوي يعني؟».

«هي لها وظيفة طبعًا».

«ولو الواحد دماغه فيها أي حاجة، الأشعة المقطعية على المخ، تبينها على طول».

«المفروض».

هز دماغه، وانصرف وهو يلهث.

في الصباح ارتدى ثيابه وأخذ بطاقة التأمين واتجه إلى المستشفى وطلب الدخول إلى عيادة المخ والأعصاب. أشاروا له على نهاية الطرقة. واتجه إلى الباب المفتوح ووجد سيدة تأخذ على ركبتيها بنتًا في الثامنة أو العاشرة من عمرها وجلس معها أمام المكتب المعدني الخالي. فجأة انفجرت البنت في بكاء وصراخ هائل خرجت الأم على أثره ثم عادت بعدما اشترت باكو بسكويت للبنت التي كانت تمسك به وهي هادئة تمامًا. لم يمر وقت طويل حتى انفجرت في نفس البكاء والصراخ وأسرعت الأم خارجة وعادت وفي يد البنت التي هدأت قطعة جديدة من الحلوى. الأستاذ خليل الذي تأمل في الأمر خاطب الأم موضحًا لها أن ابنتها تبكي وتصرخ وعندما تأتي لها بالحلوى تسكت، وهذا معناه أنها ليست مريضة بشيء في جسمها ولكن عندها حالة نفسية. والأم قالت:

«أمال احنا فين؟ ما هي دي العيادة النفسية».

خرج وقرأ اللافتة إلى جوار المدخل ووجد أنها «العيادة النفسية» وتراجع في الطرقة حتى وصل إلى المدخل السابق ووجد اللافتة المعلقة مكتوبًا عليها «جراحة المخ والأعصاب» فدخلها. جلس أمام الطبيب ووضع ورقة التحويل أمامه وشرح له حالة دماغه وقال إنه يريد عمل أشعة مقطعية على المخ. والطبيب استمع له ورفع يده وأشار إلى الناحية اليسرى وقال مبتسمًا:

«العيادة اللي جنبنا».

«دي العيادة النفسية».

«بالضبط كده».

استعاد الأستاذ خليل ورقته وعاد إلى العيادة الأخرى.

كانت المرأة وابنتها قد انصرفتا. وجلس أمام الطبيبة الشابة التي جاءت في معطف أبيض وبلوزة خضراء وياقة قميصها الأصفر الداخلي مقلوبة على حافة طوق البلوزة المدور. حدثها عما يحدث معه أثناء سيره في الشارع وكيف أنه يذهب من هذه الناحية إلى الناحية التي هناك من دون أن يرغب في ذلك، وقال إنه يفكر في عمل أشعة مقطعية على المخ.

الطبيبة الشابة ابتسمت في وجهه وطلبت منه أن يقوم يمشي في الحجرة أمامها. بعدما قام نظر إلى الجدار القريب وأخبرها أن الحجرة صغيرة بحيث لن تكون هناك فرصة لكي يتطوح من الناحية اليمنى إلى الناحية اليسرى أو بالعكس. حينئذ قالت:

«طيب ارتاح يا حاج».

عاد للجلوس كما كان يجلس من قبل حتى كتبت له ورقة بالدواء. وهو تناول هذه الورقة وهو قاعد ثم طواها بعناية ووضعها في جيبه العلوي، وشكرها وانصرف.

١٧ـ طاقم الأسنان

الولد ذهب وراءه إلى الشقة القديمة وأعطاه كيسًا من البلاستيك بداخله طاقم الأسنان وقال:

«إنت استغنيت عنه والا إيه يا بابا؟».

والأستاذ خليل تأمل أسنانه البيضاء في اللثة المحمرة وهي ملفوفة داخل كيس البلاستيك الشفاف واندهش. والولد قام دخل المطبخ وأحضر كوبًا وفتح الكيس وأسقط الطاقم بداخله من دون أن يلمسه بيده، ووضع هذا الكوب تحت الحنفية وغمره بالماء وتركه على جنب. في هذه الأثناء كان قد أسرع بفتح علبة سجائر ابنه وأخذ سيجارة وضعها في جيب جلبابه العلوي وأعاد العلبة إلى مكانها. ولما جاء شقيقه جلسا وشربا الشاي سويًّا وانصرفا.

ودخل المطبخ وأخرج السيجارة وأشعلها بولاعة البوتاجاز ورأى طاقم أسنانه وهو مغمور بالماء داخل الكوب الشفاف وموضوع بحيث يصبح عرضة لكي يراه الناس فخبأه وراء المرآة الصغيرة الموضوعة أعلى صندوق قاعدة الحمام. جلس في الصالة يتأمل

السيجارة ويدخن ويفكر كيف أنه زمان عندما تساقطت بعض أسنانه كان توقف عن الضحك بفم مفتوح واكتفى بالابتسام.

وعندما خلا فمه تمامًا من الأسنان أصبح يضحك بفم مغلق ويستخدم عينيه وبقية ملامحه في التعبير عن لحظات الانبساط التي تصادفه.

وهكذا مضت السنون بعدما خرج إلى المعاش. لقد استدعوه في شئون العاملين من أجل تقليد جديد أخذت به المصلحة وهو طلب صديقه الأقرب توفيق عثمان ليرافقه إلى هناك. وعندما دخلا القاعة ومشيا بين صفي المكاتب كانت المديرة هي الوحيدة التي عرفته بعدما انشغلت الكراسي بجيل آخر من الشباب. قامت واقفة وصافحته وهي تنظر مترددة إلى توفيق ثم سلمته مظروفًا ملونًا بداخله شهادة استثمار من فئة المائة جنيه كهدية تذكارية في المناسبة، وابتسمت ابتسامة كبيرة ثم استدار هو وتوفيق. هو ما زال يذكر كيف شعر بالحرج بينما العاملون والعاملات يتابعونهما من الخلف.

في ذلك المساء جاء توفيق عثمان إلى البيت وإحسان رحمة الله عليها جلست معهم وقالت:

«أول حاجة تعملها، بعد ما تصرف القرشين، تركب لك عدة أسنان».

وهو أخبرها أن هذه الأسنان اسمها طقم وليس عدة. وأنه لن يدفع شيئًا لأن التأمين الصحي هو الذي سيقوم بتركيبها، وهي ابتسمت وقالت له:

«أبويا الله يرحمه كان بيسميها عدة. وكان يقعد طول النهار يقول: العدة مش في الكباية يا ولاد. العدة كانت على الفرن يا ولاد، والآخر يلاقيها في سيالة الجلابية».

ثم أضافت:

«وبعدين عدة والا طقم. على الأقل تعرف تاكل الخيار».

وتوفيق عثمان قال:

«يأكل خيار ويأكل بصل ويقدر ياكل أي حاجة».

وأضاف:

«ويقدر يضحك كمان».

وخليل لم يغضب، بل ضحك هو الآخر بعد ما استغرب أن توفيق كان يعرف أسباب عدم ضحكه.

بينما علق الولد الصغير:

«أيـوه يا عم. بكره تقزقز لب، وتعض، ومحدش يعرف يكلمك».

ثم إنه انفجر ضاحكًا، وأمه ضحكت، وتوفيق ضحك.

في صباح اليوم التالي اتجها إلى البنك وقد حمل هو كيسًا مطويًا من البلاستيك الأسود. صرف مكافأة الأربعين عامًا من الخدمة وركبا تاكسيًا واتجها إلى البنك وعمل دفترًا للتوفير وعادا إلى البيت.

مرت عدة أيام حتى عثر على بطاقة التأمين الصحي وفي اليوم

التالي اتجه إلى هناك وتوفيق دخل معه ساعة الكشف لأنه أراد أن يكسب خبرة في موضوع الأسنان وتركيبها.

لقد قاما بزيارات يفصل بين كل منها عدة أيام. بدءًا من ذلك المعجون سريع الجفاف الذي أطبق عليه فكيه ثم مجموعة التجارب اللاحقة. كانوا يعتبرونها فسحة ويذهبان إلى الطبيب ثم يجلسان على المقهى مع عبد العال وآخرين ويعود كل واحد إلى البيت. الأستاذ خليل كان قد فهم أن المشكلة تتعلق بفكه الأسفل الذي تقدم بمرور الأيام عن فكه الأعلى وأقلقه ذلك كثيرًا ولكنه أمسك المرآة أمام فمه المفتوح وقد بانت أسنانه البيضاء وكان راضيًا. وقبل أن ينصرفوا سأل:

«هو أنا لازم أحطه في كباية مليانة لما أنام».

والطبيب قال:

«الطقم له مكان من اثنين: الفم، أو الكوب. مبروك».

كان مبتهجًا بعدما قال الطبيب إنه أكل طويلًا على عظام الفكين من دون أن ينتهي أمرهما. وأن غيره ممن هم في مثل ظروفه لم يجدوا شيئًا من العظم لكي يركب عليه الطقم. وفي الطريق كان يتطلع إلى واجهات المحلات الزجاجية ويفتح فمه لكي يرى أسنانه من دون جدوى بسبب الأضواء والخيالات التي تشاركه ثم استطاع مع الوقت أن يتخلص من هذه العادة ولم يعد يفتح فمه أمام أي شيء ولم يعد يلبس الطقم من أصله.

وقال:

«انزل قبل ما يبرد».

وبعد ما لبس الشبشب فتح الباب وتركه مردودًا. خرج ورأى باب شقة جاره القديم وهو مقفول وقد بهت لونه وغطاه التراب، وعندما كان على السلم لاحظ أن باب شقة عبد العال هو الآخر ما زال مغلقًا بعدما تصور أنه فتحه ووقف في انتظاره وشعر بالضيق وضغط على جرس الباب بشدة ولفترة أطول من اللازم. وبعدما فتحت نادية الصغيرة ابنة عبد العال التي تزوجت الآن وأنجبت تراجعت وهي تضحك في وجهه. كان يعرف أنه في الحجرة الداخلية وقال:

«أمال أبوكم فين؟»

حينئذ جاءه الصوت مرحبًا:

«تعالى يا أبوسليمان».

وشعر بأنه لم يعد متضايقًا من عبد العال وابتسم في وجه البنت ودخل.

بعدما صافحه رأى صينية الشاي بأعواد النعناع موضوعة بينهما. وأشعلا سيجارتين وجلسا صامتين.

بعد قليل جاءت حفيدة عبد العال وهي تحضن عروستها ووقفت في مدخل الحجرة تتطلع إليهما. وعبد العال راح يلاعبها بأصوات لا معنى لها والبنت ظلت تتابعه في وجوم ثم ابتسمت واستدارت تجري مبتعدة وأبو سليمان ظنها سوف تقع على وجهها ولكنها لم تقع.

ظل عبد العال يبتسم لنفسه ثم التفت إليه وقال إنه طلب من أمها أن تحتفظ لها بكل لعبها لغاية ما تكبر: «تخيل مثلًا وهي أم أو جدة وعندها هذه العروسة التي تحملها الآن وهي طفلة». وصمت قليلًا وقال إنه سيكون شيئًا جميلًا جدًّا.

وكان الأستاذ خليل يدخن السيجارة ويشرب الشاي بينما كان عبد العال ما زال يقول إنه كان يتمنى لو أنه مازال محتفظا ولو بلعبة واحدة من لعبه حتى الآن مع أن الواحد لا كان عنده لعب ولا كان عنده هباب، وأضاف:

«ولو أني يتهيأ لي أني كان عندي قطر بزمبلك وبيجري، وله عربيات للركاب وشبابيك وعجل صغير. لكن مش متأكد. يا ريتني يا أخي سألت أمي عنه قبل ما تموت».

وأطفأ السيجارة:

«لكن للأسف، كل الأسرار دي ماتت معاها».

وأشعل سيجارة أخرى وقال:

«شوف، نفس اللي حصل معاها بالضبط».

«مع مين؟».

«مع أمي».

وأبو سليمان سمعه يقول إن أباه كان ذهب معها لزيارة شقيقته. وأثناء عودتهما طلبت منه أن يسبقها لأنها ستطل على أمها التي كانت تعيش في آخر الشارع، وهو طلب منها أن تستعير المنشار الكبير المركون وراء الباب وتحضره معها. وعندما أحضرت المنشار وعادت وجدته يجلس على الكنبة ميتًا. وخليل أطفأ سيجارته وقام واقفًا:

«أطلع أنا بقى».

وعبد العال قال إنه مبسوط لأنه نزل يسهر معه:

«آهو يوم نسهر هنا، أو ننزل القهوة، أو نسهر عندك».

وأبو سليمان لم يكن متحمسًا وقال:

«آه. آهو يوم هنا، ويوم هناك».

وأثناء طلوعه على السلم قال إن السن تقدمت به لدرجة مدهشة، وإنه يحب أن يستقر في مكان واحد ولا يتحرك إلا للشديد القوي، ثم ما هذا الكلام الذي يقوله عبد العال: «لعب إيه وقطر إيه أبو عجل وشبابيك؟».

وبعدما طلع وقف في الطرقة المعتمة ونظر مرة أخرى إلى باب شقة الأسطى محمود المغلقة، ودخل قعد على الكنبة وشغل التليفزيون. ثم ضرب جرس التليفون، وعندما رفع السماعة سمع عبد العال يسأله:

«إنت نمت والا صاحي».

قال:

«أنا صاحي».

حينئذ سأله إن كان ما زال يذكر حكاية المنشار التي حكاها له عندما كانا يشربان الشاي؟ أبو سليمان قال إنه ما زال يذكرها. وعبد العال قال إنه انتبه الآن إلى أن ما حدث لأمه مع أبيه، هو الذي حدث له مع أمه، وأبو سليمان قال:

«إزاي؟».

قال إن أمه ظلت طوال ثلاثة وعشرين عامًا لا تتوقف عن لوم نفسها لأنها لم تسأل أبيه عن سبب طلبه للمنشار، وكل يوم على الله كانت تقول:

«ما تعرفش أبوك كان عاوز المنشار ليه يا عبد العال؟»، وهو يقول «لأ».

يعني إذا كانت هي ما سألتوش عن المنشار، أنا كمان ما سألتهاش عن القطر الصغير.

أبو سليمان فاته بعض الكلام ولذلك لم يفهم جيدًا، وقال:

«إزاي الكلام ده؟».

عبد العال قال:

«طيب اسمع السر ده بقى».

وهمس في السماعة قائلًا إنه رأى أمه قبل أن تموت وهي قاعدة في السرير تقول لنفسها:

«يا ترى كنت عاوز المنشار في إيه، يا أبو عبد العال؟».

«لأ يا راجل؟».

«زيّ ما باقول لك كده».

وأغلق الخط.

١٩ـ زيـــارة

«هيه، جاهز؟».

وعندما حاول الاعتذار وجده يخفض صوته ويهمس:

«البس بس وبعدين أفهمك».

هذه المكالمة كانت الثالثة أو الخامسة حول نفس الموضوع. أبو زيد شقيق أم نادية زوجة عبد العال، باع الغيط الذي ورثه عن أبيه لأحد المقاولين لأنه طلع في كردون المباني وقبض مليونا ونصف من الجنيهات، ثم أخبره أن أبا زيد رفض أن يتقاضى شيكًا أو يذهب إلى البنك، والمقاول وضع النقود في عربة نيسان نصف نقل وسلمها له في البيت، وعندما تساءل الأستاذ خليل عن موقف أم نادية إن كانت ورثت أرضًا مثل شقيقها أبو زيد، قال عبد العال إن حكمة ربنا جعلت ما ورثه أبو زيد يطلع في كردون المباني وما ورثته أم نادية يطلع في الغيطان. وأن الواجب يقتضي الآن أن نذهب لكي نبارك له:

«ونشوف الفلوس».

«نشوفها ازاي؟».

عبد العال قال:

«إن أي حد يروح يبارك له، بعد ما يشرب الشاي، بيفرجه على المليون ونص».

وفي هذه الأثناء كان لبس وقعد على الكنبة يربط الحذاء، وتأكد من وجود شريط الحبوب الذي يضع منه تحت لسانه إذا شعر بالتعب في جيب قميصه العلوي. ونزل من الدور الثاني ووجده ينتظره أمام مدخل شقته في الدور الأول. وعندما خرجا إلى الطريق حاول الاعتذار ثانية ولكن عبد العال أوضح له أن أبا زيد طلبه لكي يذهب ويحصي معه الفلوس، وطبعًا وجود أبو سليمان سوف يمنعه من هذه المحاولة، وقال:

«يعني يا دوب نشرب الشاي، ونتفرج على الفلوس، ونمشي».

«عاوزك تعد معاه مليون جنيه ونص؟».

هز رأسه موافقًا وقال إن مثل هذه الحكاية ممكن تأخذ شهرين أو ثلاثة.

وكان البيت الصغير في نهاية الشارع ومن دور واحد، وقد استبدل بابه الخشبي ببوابة حديدية عليها جنزير، وعبد العال ضرب الجرس الذي أحاطت به رقعة من الجبس الأصفر الحديث في الجدار القاتم وانتظرا حتى لمحا دماغ أبي زيد وهي تطل عليهما من الناصية أعلى الدرجات الثلاث، ثم نزل يفتح القفل بالمفتاح المربوط في العروة ويصيح مرحبًا لكن وجهه كان جامدًا وهو ينظر إلى أبي سليمان ويقول بصوت قوي:

«إزيك يا ابو سليمان وازي عيالك. البقية في حياتك يا سيدي».

وجلسا في القاعة التي كان بها كنبتان ومنضدة ودولاب كبير من الصاج عليه قفل حديدي لامع، وخليل وعبد العال تبادلا نظرة تعني أن النقود في هذا الدولاب، ويبدو أن أبا زيد لمحهما وسأل عن أحوال شقيقته أم نادية وصاح طالبًا الشاي ولم يتكلم بعد ذلك أبدًا. ولما كان الدولاب المقفول في مواجهتهما فقد راح عبد العال يتفادى الالتفات إليه وينظر إلى قدميه محرجًا وخليل وجد نفسه ينظر إلى الدولاب رغمًا عنه ولكنه حاول أن ينظر بطريقة عابرة مثل الرجل الذي ينظر إلى دولاب مقفول من الصاج لا يوجد بداخله أي نقود، وكان لا يعرف بينه وبين نفسه إن كانت هذه المليون والنصف تملأ الدولاب كله أم تملأ نصفه فقط. وكلما قام أبو زيد لسبب أو لآخر كان كل واحد فيهما يظن أنه سوف يفتح الدولاب لكي يفرجهما على الفلوس ولكنه كان يجلس ولا يفعل. وبعدما انتهيا من شرب الشاي حمل الصينية وخرج، وعبد العال همس في أذن خليل اليسرى وقال:

«اتفضل يا سيدي، مع أنه بقى مليونير».

ثم عاد أبو زيد من الداخل وسألهما إن كانا يأخذان قهوة:

«والا أجيب شاي تاني».

ولكنهما اعتذرا وجلسا صامتين، وخليل قال:

«إحنا يا دوب نروح بقى».

قال:

«لسه بدري يا جماعة».

وقام واقفًا وتبعاه وهو ينزل الدرجات الثلاث ويمسك ذيل الجلباب في يده ويصافحهم باليد الأخرى وقد عادت الابتسامة إلى وجهه، وفتح لهما الباب وطلب أن يسلما على الأولاد وقال إن هذه الزيارة:

«لا تُحسب».

ومشيا في الشارع القصير وهما يسمعان ضجيج السلسلة وهي تحتك بحديد المدخل بينما يقوم بإغلاقه.

٢٠ـ فــرح

صديق عمره، توفيق عثمان، دخل من باب الشقة المفتوح ووجده نائمًا على الكنبة التي في الصالة، وجلس أمامه وقال:

«إيه اللي إنت عامله ده؟»

وخليل اعتدل وقال:

«عامل إيه؟»

«قوم قوم. الحبسة دي مش كويسة».

وأخبره أن هناك دعوة من رزق لكي يحضرا حفل زفاف ابنه، وأن الأستاذ مصطفى سوف يأخذهما في عربته ويعيدهما مرة أخرى. وأبو سليمان فكر أنه لا بأس أن يشغل نفسه قليلًا ويقوم بالواجب في الوقت نفسه.

عندما خرج برفقته إلى أول الطريق وجد الأستاذ مصطفى وزوجته الأستاذة كوثر مدرسة اللغة العربية التي عادت من الإعارة يقفان إلى جوار السيارة. وأبو سليمان دهش لأنها جاءت ترافقهم في هذا المشوار ثم قال لا بد وأنها جاءت لكي تقوم بالواجب لأنه فرح

وخصوصًا أنها كانت تتمتع بقدر كبير من الاحترام داخل الحي ولا تُشاهد منذ عودتها من الإعارة إلا وقد وضعت على رأسها باروكة كبيرة بضفائر كستنائية كثيفة مدلاة على كتفيها، وإذا واجهها أي واحد فسوف يعرف أنها تلبسها منحرفة مثل الطربوش بحيث تكون مرتفعة عن جبهتها من جانب ونازلة لغاية حاجبها في الجانب الآخر. وكان يدهشه أن زوجها الأستاذ مصطفى لا ينبهها إلى ذلك. وهي ما إن رأت عبد العال والأستاذ خليل حتى هزت جدائلها وصافحتهما بابتسامة خفيفة في شفتيها النحيلتين وعينيها الحزينتين، وقدمت العزاء للأستاذ خليل وزوجها الأستاذ مصطفى أضاف:

«ده عزاء مؤقت».

وهي قالت:

«طبعًا».

والتفتت إلى زوجها وسألته:

«أطلعها لك؟».

ولكن الأستاذ مصطفى أمسك بالمفاتيح وقال لخليل وتوفيق:

«اركبوا».

وبعدما جلسا في الخلف اتجه هو إلى مقعد السائق وجلس من دون تعليق. حينئذ فتحت الأستاذة كوثر الباب وجلست إلى جواره ووضعت حقيبتها في حجرها، وكانت دماغها تحجب الرؤية عن توفيق فاقترب من خليل والتصق به. وبعد أن قام الأستاذ مصطفى بتشغيل موتور السيارة خاطبته قائلة:

«سخنها شوية، واكسر كله شمال وأنت واقف».

وهو سخن الموتور وكسر شمال وهو واقف ثم تحرك بالسيارة إلى الناحية اليسرى وكسر يمينًا وخرجوا إلى الطريق ولم يتحدث أحد طوال المشوار باستثناء تعليقات قليلة من الأستاذة مثل:

«على مهلك».

أو:

«خليك في اليمين».

أو:

«غير الفتيس».

ولا شيء أكثر من ذلك.

وقد تبينوا صوت الطبول والمزمار البلدي قبل أن يقتربوا من الساحة المزدحمة بين البيوت، وأسرع رزق يستقبلهم وهو يرحب بالأستاذة كوثر وأخذهم وراءه وزعق في الأولاد الذين يعتلون إحدى الأرائك الخشبية وجعلهم يجلسون، والعريس لوح لهم بيده وهو إلى جوار العروس النحيلة في الناحية الأخرى من الساحة. والأستاذة وضعت حقيبتها في حجرها ولم تكن أقدامها تصل إلى الأرض.

كان صوت المزمار عاليًا والخيول ترقص في الساحة المزدحمة وخليل يشعر في نعل حذائه برجع الضربات القوية لحوافر الخيل على الأرض الترابية المدكوكة. وبعد فترة كافية من الوقت عبر الأستاذ

خليل عن رغبته في التبول وسألوا رزق إن كانت توجد دورة مياه؟ ورزق سبقه إلى حجرة كبيرة ملحقة بالبيت القريب. دخل وأغلق الباب ووجد بها بعض الماعز والأوز والخراف والدجاجات التي تمرح حول ثقب المرحاض المبلل في منتصف الحجرة تمامًا، وإلى جواره صفيحة ماء وعلبة سلمون فارغة. تبول وهو واقف وعاد وحده وهو يشعر بالارتياح وجلس في مكانه. والأستاذ مصطفى سأله عن المكان الذي كان فيه وأخبره أنها دورة المياه والأستاذ مصطفى مال على زوجته الأستاذة كوثر وأخبرها. وشربوا شربات وماء مثلجًا وكل واحد أخذ ساندوتش صغير من الجبن الرومي وآخر من اللانشون مع قطعتين من الجاتوه في طبق مربع من الورق المقوى. بعد قليل مالت الأستاذة التي تجلس في الطرف الآخر على زوجها الأستاذ مصطفى الذي يجلس إلى جوار توفيق وهمست في أذنه التي ناحيتها، فقام ورافقها حتى دورة المياه. أبو سليمان رآه ينتظرها أمام الباب البعيد المغلق ثم خرجت وعادا إلى مكانيهما وهما يتهامسان. ورزق وقف أمامهم وأخبرهم وهو يزعق أن فتحة المرحاض التي رأوها موجودة فوق بئر المقبرة. والأستاذ مصطفى قال:

«مقبرة إيه؟»

ورزق قال:

«مقبرة الفراعنة».

ومصطفى قال يا نهار أسود ولكن رزق أخبره أن البيوت هنا:

«كلها كده».

بعد ذلك لاحظ أبو سليمان أن الأستاذة ظلت تتململ وتميل للأمام وتعتدل وهي قاعدة. والأستاذ مصطفى تحدث معها وقال:

«ما تيجوا نمشي».

وودعوا رزق الذي أمسك فيهم ولكنهم انصرفوا.

وعادوا من دون أن يتحدثوا إلا عن زحمة الطريق، وما إن وصلوا حتى هرولت الأستاذة إلى مدخل البيت وأسرعت تصعد السلم وتركت مصطفى يركن العربة. وأبو سليمان ابتعد قليلًا وتركه يتحدث مع توفيق عثمان. وعندما انتهيا لوح له مصطفى بيده من هناك، وتوفيق رجع وقال:

«كان لازم نستنى شوية، الفرح كان في أوله. لكن الظروف بقى».

ولما أبو سليمان سأله:

«فيه حاجه والا إيه؟»

توفيق أخبره بصوته العميق أن الأستاذة كانت مزنوقة وتريد تدخل دورة المياه. وأبو سليمان قال:

«الله. ماهي دخلت».

وتوفيق قال إنها دخلت فعلًا و لكنها:

«انكسفت تشلح قدام الفراخ والخرفان».

ثم انصرفا.

٢١ـ زقاق جانبي

عاد مرة أخرى لصلاة الجمعة في الجامع القريب.

ارتدى جلبابه الأبيض المكوي، وأخذ الشبشب في قدميه وغادر المكان.

في ذلك الوقت كانت امرأة تجلس على بسطة بارتفاع ثلاث درجات في بيت مفتوح على زقاق جانبي. كانت تفتت كسرة خبز في حجرها ثم تلقي بالفتات إلى دجاجاتها التي تلهو أمام الباب، وتلمح الناس الذين يمرون بالعرض في الشارع الذي ينحدر منه هذا الزقاق.

وهي لاحظت النظرة الجانبية للعجوز الذي تمهل وهو يعبر أمامها في طريقه ناحية الجامع ويختفي لمدة خطوتين أو ثلاث، ثم وهو يتراجع بعد ذلك ويتوقف. لم ينظر إليها شخصيًا بل راح يتأمل الدجاج ويطيل النظر إلى الدجاجة البنية ويتبعها بعينيه أينما ذهبت. بعد ذلك رأته وهو ينصرف في اللحظة التي ارتفع فيها أذان الجمعة من مكبر الصوت القريب. والمرأة لم يكن عندها أي تفسير لهذا الموضوع.

لم يمر وقت طويل حتى انتهت الصلاة، ورفعت وجهها لتجد الرجل نفسه يستقر في مدخل الزقاق. وهو لم يلبث أن تقدم والدجاجات تجري أمامه حتى وقف أسفل السلم ورفع وجهه إليها. كان عجوزًا جدًّا ويضع نظارة طبية وجلبابه نظيف ومكوي، وقال:

«نهارك سعيد يا هانم».

والمرأة التي كانت تجلس على البسطة حصل عندها نوع من الدهشة الكبيرة لسببين: السبب الأول هو هذا الصوت الذي كانت تظن أنه قد لا يصدر إلا عن رجل ممتلئ، والسبب الآخر هو «نهارك سعيد يا هانم» التي لم تر أو تسمع أحدًا يقولها بنفسه من قبل. وهي في هذه الأثناء كانت مدت يدها وجذبت ذيل الجلباب لتغطي أي شيء ظاهر من قدميها.

وقال:

«بخصوص الفرخة البني».

وأشار برأسه ناحية الفرخة المعنية.

المرأة بدورها لمحت الفرخة التي كانت تنقر عند الجدار، وانتظرت.

قال:

«أقصد الفرخة البني».

«مالها؟»

«يا ترى، فرختك؟».

«أمال فرخة مين؟».

«الحقيقة، مجرد سؤال»،

وفكر قليلًا، وأضاف:

«يعني هي عندك مثلًا من أيام ما كانت كتكوت؟».

قالت:

«أيوه».

«هي دي الإجابة اللي كنت عاوز أعرفها، لا أكثر، ولا أقل».

وظل واقفًا.

المرأة قالت بصوت خافت، وشيء من التوجس:

«طيب وانت بتسأل ليه بقى؟».

«من حقك تعرفي أنا باسأل ليه»،

وعدل من وضع نظارته على عينيه:

«زمان يا ستي، كان عندنا كتكوت بني، بنفس لون الفرخة دي. كان ضمن الكتاكيت اللي الحاجة اشترتها علشان تربيها. الكتكوت ده خرج من البيت وما رجعش، اختفى، وأنا، أثناء مروري، لمحت الفرخة البني اللي عندك، وهي فكرتني بالكتكوت اللي خرج ومارجعش، وخطر في بالي إني أسألك».

وصمت فترة وقال:

«هو طبعًا لا يصح إن الواحد يخطر في باله مثل هذا التفكير، لكن ده اللي حصل».

«دي عندنا من أيام ما كانت بيضة، وفقست».

«جميل جدًّا. الإجابة دي تضع حدا للموضوع كله».

وبدا عليه الارتياح وأخبرها أنه أبو سليمان الذي عنده شقة حجرتين وصالة في بيت عيد الذي يعمل في الاتصالات، وإنه كان يعيش في شقة أخرى حجرتين وصالة أيضًا، وأضاف:

«شوفي حضرتك، أنا ممكن أقدر كل شيء. لكن المسألة باختصار هي زي ما قلت لك. إحنا كان عندنا كتكوت بني تايه من سنين. صح؟».

قالت:

«صح».

«والفرخة البني اللي عندك فكرتني به، صح؟».

قالت:

«صح».

وبما أن السؤال خطر في بالي، يجرى إيه لو سألتك؟».

«ولا حاجة».

«الله ينور عليكي. تعرفي لولا أني سألتك؟ كنت فضلت مشغول بالحكاية دي طول النهار والليل كمان. وأنا انشغلت بها فعلًا وانا

باصلي الجمعة. لكن بعد ما سألت، وحضرتك جاوبتي إجابة مقنعة، خلاص، الموضوع انتهى. تقدري تقولي لي إيه العيب في كده؟».

وهي شعرت أن شكله ليس غريبًا بالفعل وظلت حريصة طول الوقت أن لا تأتي بأية حركة، وأن تظل على الوضع نفسه الذي وجدها عليه عندما جاء، وقالت:

«أبـدًا».

هز رأسه وقال:

«شوفي حضرتك. أنا ضيعت ستين سنة من عمري على الأقل وانا عندي أسئلة من هذا النوع، نفسي أسألها ولا أقدر، لأني كنت محرج. ودي مأساة يا هانم، والدليل هو اللي حصل دلوقت، هل فيه أي ضرر أصاب حضرتك من السؤال؟».

«ربنا ما يجبش حاجة وحشة».

«علشان كده، أنا قررت من ساعة وفاة الحاجة، إن أي سؤال يشغل بالي لازم اسأله على طول. وانتي كمان، أي سؤال يشغلك اسأليه. دي نصيحتي ليكي. السؤال مش عيب أبدًا. السؤال عيب؟».

«أبدًا».

«أشكرك. سلام عليكم».

وعندما استدار وابتعد، بدأت تلم فتافيت العيش من حجرها لكي

تقوم، تنزل الدرجات الثلاث وتطل عليه من ناصية الزقاق لكي تراه وهو ذاهب. لكنها كسلت.

قعدت كما هي في انتظار أن يظهر أحد الجيران، وتحكي له ما جرى.

٢٢ـ زقاق معتم

في المساء، ارتدى البنطلون الأسـود، والقميص الأبيض، والسترة السوداء، وأدخل يده في جيب البنطلون، تحسس الورقة ذات الجنيهات الخمس وهي مطوية، وخرج إلى الصالة. سحب الباب، وغادر.

كان قد فكر أن يلجأ إلى صديق طفولته توفيق عثمان. ووضع يده في جيبه واطمأن على وجود الجنيهات الخمس وهي مطوية في زاوية الجيب، ونزل الدرج على مهله وخرج إلى الطريق. مشى قليلًا ثم انحرف إلى زقاق أمير الجيوش القصير شبه المعتم ودخل آخر بيت في الناحية اليسرى وطلع السلم وهو يكاد لا يرى تحت قدميه، ولما وصل الطابق الأول ارتاح قليلًا، ثم صعد إلى الطابق الثاني والتقط أنفاسه ونقر زجاج الشراعة بنورها الخفيف، والبنت التي تعصب رأسها فتحت الباب وتراجعت وهي تقول:

«أهلًا يا عمو».

وعمو خليل دخل وقال:

«سلام عليكم».

والحاجة ثريا التي تجلس على الكنبة أمام التليفزيون قالت:

«عليكم السلام. إزيك يا ابو سليمان؟»

«الله يخليكي».

ودار بعينيه داخل الصالة وقال:

«أمال أبوكم فين؟».

«أبوهم عيان».

والبنت سبقته إلى الحجرة الداخلية وهي تصيح:

«عمو خليل يا بابا».

«عيان ازاي؟».

ورأى توفيق وهو يستلقي على السرير وظهره يرتاح إلى المخدات المرفوعة. كان طويلًا يرتدي جلبابًا وطاقية من القماش منحدرة على مقدمة رأسه. جلس وقال:

«إيه الحكاية».

«أبدًا. شوية كده».

«برد والا إيه؟»

وتوفيق عثمان انتعش وقال:

«والله معاك حق. هو غالبًا كده».

ودخلت البنت بالشاي. وتوفيق أشعل سيجارة وقدم للعم خليل واحدة واعتدل بظهره على المخدات فانزلقت الطاقية أكثر وغطت حاجبيه، وخليل كاد يمد يده لكي يعيدها إلى مكانها. لكن توفيق قال:

«عامل إيه يا خل؟»

«ماشي الحال. الحمد لله».

راحا يدخنان. وخليل سأله وهو يشرب الشاي:

«بتاخد علاج والا لأ؟».

قال إنه لا يستطيع أبدًا أن يأخذ علاجًا إلا إذا كتبه الدكتور، وإنه إذا لم يتحسن غدًا:

«حامر على الدكتور مصطفى».

خليل قال:

«ده حمار».

وتوفيق قال:

«لكن بيسد».

حينئذ قال خليل إنه سيقوم الآن، ويمر غدًا للاطمئنان عليه، ولما توفيق طلب منه الجلوس رجع وأضاف:

«أقعد إيه بقى، أنا كنت جاي اشوف معاك حاجة».

«عاوز قد إيه؟».

«أي حاجة صغيرة، لكن ما دام عيان، خلاص بقى».

مد الآخر يده في جيب جلبابه العلوي وأخرج عدة أوراق مالية، وسحب منها ورقة من ذات الخمسين جنيها وقال:

«تنفع دي؟».

«كويسه قوي، كلها يومين وأمر على البنك».

وقام واقفًا وهو يقول إنه سوف يطمئن عليه غدًا.

راح ينزل السلم المعتم وهو يتمسك بالدرابزين، ومشى في الزقاق حتى خرج إلى الطريق، وبينما هو يتجه إلى المقهى مد يده إلى جيب السترة يتحسس الورقة ذات الخمسين جنيها ولكنه لم يجدها. توقف في مكانه. لم يترك جيبًا واحدًا في ثيابه من دون أن يبحث فيه ولكنه لم يجد لها أثرًا. وبعدما نظر تحت قدميه وتلفت حوله في كل اتجاه، فكر أن يعود من حيث أتى بالضبط ويبحث عنها في أرض الطريق وأرض الزقاق وحوش البيت والسلم. كما فكر أن يفعل ذلك بمنتهى السرعة قبل أن يعثر عليها أحد ولكنه لن يستطيع أن يسرع وإلا شعر بالألم في صدره. واطمأن على وجود شريط الحبوب التي يضعها تحت لسانه في جيب السترة العلوي ثم استدار.

تنبه إلى أن الشارع عريض إلى حد ما، ولأنه لم يعد يذكر إن كان مشى في الجانب الأيمن أو الأيسر أو مشى في الوسط فلقد كان عليه أن يبحث بالعرض أكثر مما يبحث بالطول. وهكذا راح يتحرك من هنا إلى هناك، ورغم أنه كان حريصًا على أن يفعل ذلك مثل أي رجل

آخر يمشي دون أن يبحث عن شيء حتى لا يلفت نظر أحد، فإن العم خليل كان ممتلئًا بالأمل.

هو يذكر أن توفيق أعطاه الورقة مطوية إلى نصفين ولكنه لا يذكر إن كان شخصيًا قد طواها إلى أربعة أم أنه لم يفعل. وكان كلما صادف ورقة مشكوكًا فيها انحنى كأنه يعبث برباط حذائه ثم يعتدل. وقد انتهى الطريق قبل أن يجد للخمسين جنيها أي أثر، وقبل أن ينحرف إلى الزقاق تحسس الورقة الأخرى ذات الجنيهات الخمس واطمأن أنها ما زالت موجودة في جيب البنطلون.

رغم العتمة الخفيفة، فإن خليل انبسط لأن الزقاق كان خاليًا ولا أحد يراه. المشكلة كانت كثرة النفايات المرمية وهو الأمر الذي استوجب أن يكون وجهه أقرب إلى الأرض، ولما كانت هذه الطريقة في المشي تؤلم عموده الفقري راح يرتاح بين خمس خطوات وأخرى حتى طال الوقت ولم يجد شيئًا.

توقف أمام باب البيت وفي داخله بقية ملموسة من الأمل، وفكر أنه سوف يبحث في حوش البيت ثم على درجات السلم وإذا لا قدر الله لم يجدها سوف ينزل لأنه ليس من اللائق أن يخبط على الباب مرة أخرى لكي يسألهم عنها.

بحث جيدًا في حوش البيت الذي كان التقط شيئا من الضوء الخفيف القادم من الخارج ولم يجد شيئًا. السلالم كانت أكثر إعتامًا وهو كان ينحني ويستند بيده اليسرى على الدرجة ويتحسسها كأنه يكنسها بيده اليمنى ثم ينتقل إلى الدرجة التالية، وهكذا حتى وصل الطابق الأول واعتدل بصعوبة لأن قامته كانت تعودت الانحناء.

وقف يستريح متكئًا على الدرابزين وهو يبحث بعينيه في بسطة السلم بين الطابقين ويشعر بالأمل وهو ينسحب من داخله ولكنه لم يفقده تماما، لأن هناك سلالم طابق آخر وهناك الفسحة التي أمام مدخل الشقة. وكان التقط أنفاسه وانحنى وفعل كما فعل في الأول. ينزل بركبته ويستند على الدرجة بيده اليسرى ويمسحها في العتمة بيده اليمنى، ويقف ليستريح. وعندما أوشك على الانتهاء رفع قدمه ونزل بها فانزلق نعل الحذاء على حافة درجة السلم ونام بطوله على بطنه وانحدر سريعًا على السلالم حتى وصل إلى الطرقة الموجودة بين الطابقين. ارتاح قليلًا في رقدته وهو يكتم توجعه والآهات التي أرادت أن تخرج منه ثم استعان بالدرابزين حتى وقف، ووجد صعوبة في النزول ولكنه نزل ووقف على باب البيت وبدأ ينفض سترته المعفرة وشعر بشيء من الألم في عظام صدره، ولما انحنى ينفض البنطلون جاءت يده على ساقه شعر بجرح في القصبة تحت القماش الأسود.

أثناء عودته إلى المقهى لم يضيع فرصة البحث في الزقاق مرة أخرى من دون أن ينحني. وعندما خرج إلى الشارع فعل نفس الشيء ولاحظ أن عملية البحث هذه المرة كانت أسهل من المرة الأولى وانتهت بسرعة. وفي النهاية وقف وعاود التفتيش في جيوبه كلها لعل وعسى. لم يترك جيبًا داخليًا أو خارجيًا دون أن ينسى جيوب البنطلون الخلفية، لم يكن هناك إلا الورقة ذات الخمسة جنيهات. وفكر أنه سوف يعود غدًا لكي يطمئن على توفيق ولو كانت الورقة وقعت في الشقة فسوف يعطونها له. مؤكد.

انتقى مكانًا جانبيًا على رصيف المقهى وجلس، وعندما جاءت

القهوة وفتح فمه لكي يحتسيها آلمه فكه ووضع الفنجان وتحسس ذقنه ووجدها وارمة بعض الشيء من أسفل وانتبه إلى أنه وقع عليها وفكر وقال في سره: «لو الواحد لابس الطقم كان لسانه انقطع»، كما قال إن الوقعة عمومًا ليست هينة وكان من الممكن أن تتسبب في كسر عظام الحوض الذي يعلم أنه يكلف كثيرًا من المال، وتحسس جنبه وحمد ربنا لأنه سترها معه أو أي شيء من هذا النوع وبلل يديه من كوب الماء وراح يمسح التراب عن صدره وبنطلونه، وحاول حتى وضع ساقًا على ساق وأخرج السيجارة أشعلها، راح يشرب القهوة بصعوبة ويدخن، وقال إنه لولا هذه الإصابات كان قام مرة أخرى يبحث عن الورقة.

٢٣. عند مدخل المقهى

في المساء، كان يجلس على رصيف المقهى الخارجي وإلى جواره المنضدة ذات القرص النحاسي المستدير والأرجل الحديدية السوداء، وكان يشرب القهوة ويدخن سيجارته الثالثة هذا اليوم، ويتفرج على الناس ويفكر.

كان قام بالأمس من قيلولته ليكتشف، بالمصادفة البحتة، أن إحدى ساقيه صارت أطول من الأخرى، ذلك عندما مدهما أمامه وهما عاريتان ووجد أن اليمنى تسبق اليسرى قليلًا. إلا أنه، بعد التجارب التي عملها وهو قاعد ثم عملها وهو واقف، والتي انتهت بأن لبس البنطلون بدلًا من الجلباب وربط الحذاء ووقف منتصبًا، ومال برأسه وتطلع بحرص بالغ إلى أسفل، لاحظ أن قماش البنطلون به ثنية أو اثنتين على وجه فردة الحذاء اليمنى، وهذا معناه أن ساقه اليسرى هي التي صارت أطول، خصوصًا أنه قلع البنطلون وطواه وقاس رجليه إحداهما على الأخرى ووجد أن القماش في طول واحد ولا توجد أي رجل أطول من الأخرى. وهو تمشى من الصالة إلى المطبخ وعاد من هناك وهو يشعر بأنه يمشي فعلًا بإحساس أي

إنسان عنده ساق أطول قليلًا من الأخرى. وعندما جاء بالأمس إلى المقهى ورأى عبد العال يجلس في مكانهما المعتاد، تمهل أمامه قبل أن يصعد الرصيف حتى تأكد أنه رآه. وعبد العال لم يعلق بشيء أو يقول مثلًا:

«مال رجلك؟»

ولكنه استقبله مثل العادة.

فهل معنى هذا أنه رآه يمشي بشكل طبيعي؟

أم أنه رآه ولم ينتبه إلى أنه يعرج في مشيته؟

صحيح أنهما انصرفا سويًّا ومشيا لغاية البيت. ولكنهما مشيا متجاورين، والإنسان عندما يمشي بجوار الآخر لا يستطيع أن يلاحظ إن كان عنده عرج أم لا. ما يدهشه أنه انطوى بالأمس على سره ولم يحك عنه شيئًا. ظل طول القعدة يمسك نفسه كلما أوشك أن يقول. المشكلة أنه لم يسمع أبدًا أن شيئًا مثل هذا حدث سواء لواحد من معارفه أو من غير معارفه.

هل من الممكن أن يكون هذا نوعًا من الأمراض النادرة أو المعروفة ولكن في حدود ضيقة جدًّا؟

وهل هذه، يا ترى، من الحالات التي تستقر عند هذا الحد؟

أم إنها من الحالات الأخرى التي تتطور مع الوقت؟

كان باله ينشغل وينتابه القلق لفترة من الوقت ثم يتجاهل ما حدث على أمل أن ينتهي هذا الموضوع ويحل نفسه بنفسه ويفكر

فعلًا بأشياء أخرى مثل موت إحسان أو أن الولدين لم يتصلا منذ الأمس أو يتفرج على الناس وهو ما زال يقعد في نفس المكان. وفكر أن إحسان لو كانت موجودة كان أخبرها. صحيح أنها كانت ستقول:

«هو انت مش لاقي لك مصيبة تطلعها في نفسك؟».

ولكن من يعرف؟

أليس من الجائز أن يكون عندها علم بمثل هذه الحالة؟

ويتذكر كيف كان يتحدث معها أحيانًا في موضوع وهو يعتقد أنها لا تفهم فيه شيئًا ويفاجأ من طريقة ردها أن عندها فكرة كبيرة عنه. واشتاق إليها ورآها تمشي في الشقة على مهلها وأبعدها عن فكره بعدما قال:

«الله يرحمك يا إحسان».

وجاء عبد العال:

«سلام عليكم».

«وعليكم السلام ورحمة الله».

وجاءت القهوة.

عبد العال قال إن الجو معقول وخليل أمن على كلامه وأضاف:

«أحسن من امبارح بكتير».

وانتظر حتى أنهى عبد العال قهوته، ثم سأله إن كان رآه بالأمس وهو قادم إلى المقهى، وعبد العال قال:

«وانت قادم ازاي يعني؟».

«يعني وانا جاي».

عبد العال قال إنه رآه طبعًا.

وخليل سأله إن كان لاحظ أنه يعرج وهو ماشي؟

عبد العال قال:

«مش واخد بالي. إنت اتعورت والا إيه؟».

خليل شعر بالضيق من هذا السؤال الغبي وحكى له على مضض وبالتفصيل مسألة الساق التي هي أطول من الساق، ثم أكد على أنه اكتشف الأمر بالمصادفة البحتة، كما حكى له عن التجارب التي عملها وبينت له أن ساقه اليسرى هي التي أصبحت أطول من اليمنى وليست اليمنى هي التي أصبحت أطول من اليسرى كما كان يظن في الأول. وعبد العال ظل يستمع إليه منتبها ثم وضع فنجان القهوة وطلب منه أن يقوم يتمشى أمام المقهى حتى يرى إن كان يعرج أم لا.

خليل تجاهل هذا الطلب ولم يقم على الفور. بل أشعل سيجارته الرابعة لهذا اليوم وقال:

«شوية كده».

وبعدما انتهى من السيجارة ألقى بها ما بين قدميه وهرسها جيدًا

بفردة حذائه الأسود وقام مترددًا ووضع يديه في جيوبه كأنه يفكر، ثم نزل عن الرصيف ومشى متمهلًا لمسافة معقولة ووقف رافعًا وجهه مع امتداد الشارع كأنه يبحث. والتفت إلى هنا ثم التفت إلى هناك ثم استدار على مهله لأنه لم يجد ما كان يبحث عنه وعاد. فعل ذلك في الوقت الذي كان عبد العال يتابع حركة قدميه في الذهاب والإياب بمنتهى اليقظة وهو مائل على مقعده بعدما ضيق ما بين عينيه الاثنتين. وقال:

«ما فيش حاجة أبدًا».

«لأ يا شيخ؟».

«شايف الراجل اللي بيشرب العرقسوس هناك ده؟».

«ماله؟».

«رجليك زي رجليه بالظبط».

«يعني ما فيش لا عرج ولا كلام فارغ من ده؟».

«أنا شايف كده».

«تصدق ان انا قلت كده من الأول».

وطلب فنجانًا آخر من القهوة.

٢٤- زجاجة بلا غطاء

قبل قليل كان هناك أمام الثلاجة. وهو عندما يفتحها يرى الجبن والزيتون وأواني الطعام الذي أعدته زوجة ابنه في جوفها الأبيض المضيء، كما يرى زجاجات الماء ذات اللون الأخضر الداكن في رف الباب السفلي، وفوقه الرف الآخر الذي كانت تضع فيه المعلبات والبرطمانات، وهذا يعلوه الرف الثالث الذي يرص فيه البيض، أما العلوي فهو مخصص لعلب الدواء وأنابيب المرهم والكريمات. كان يتأمل هذه الأرفف وهو واقف يمسك بحافة الباب المفتوح ويرى زجاجات الماء كلها ولكنه، حتى لو انحنى، لم يكن يرى أعناقها ذات الأغطية المعدنية الحمراء، لأنها تكون مختفية تحت رف البرطمانات، الثاني من تحت، والثالث من فوق. وهو ترك حافة الباب من يده بعدما احتجزه بركبته ليبقيه مفتوحًا، وانحنى. كان من عادته أن يمر بكفه على باطن هذه الزجاجات، الزجاجة التي يجدها أكثر برودة من غيرها يميلها إلى الخارج ويسحبها بينما يكون إصبعه قد لامس قمتها وعرف إن كانت هي الزجاجة التي لا غطاء لها والتي كان طرف إصبعه يدخل في فتحتها أم لا. إذا كانت هي الزجاجة التي لا غطاء لها فإنه كان يشعر بالارتياح ويرفعها إلى فمه يشرب

حتى يرتوي وهو يشعر أن الماء يتدفق منها إلى حلقه في يسر وأن له مذاقا مبهجا، كان يفعل ذلك من دون أن يضطر لإغلاق باب الثلاجة للاستعانة بيده على الإمساك بالزجاجة بينما يفتحها باليد الأخرى. بل كان يشرب وهو يثني مرفق يده الخالية أعلى الباب ويضع ساقًا أمام الأخرى. هذا إذا كانت هي الزجاجة التي من دون غطاء. أما إذا كانت من الزجاجات المغلقة فإنه كان يتناولها ويفتحها ويحس أن طعم الماء مختلف ويفقد عذوبته، بل إنه في كثير من الأحيان لا يعرف أبدًا كيف يفتح هذه الزجاجة المغلقة مهما أمسك الغطاء بذيل الجلباب أو بذيل سترة البيجامة أو بالفوطة وحاول أن يفكه فإنه لا يقدر أبدًا ويكاد يجرح يده ويستغرب من اكتشافه لهذه القوة الخفية التي توجد لدى هذه المرأة التي تعيش مثله على الأدوية. في البداية ظنها عادة هذا النوع من الغطيان ولكنه تأكد بعدما قضى عدة شهور وهو غير قادر على فتح زجاجة زيت الزيتون بعدما أغلقتها هي. كان يخجل أن يأخذ الزجاجة ويتجه إليها ويطلب منها أن تفتحها له. في مرة استطاع أن يخلع غطاءين من زجاجتين وخبأهما في درج الخضار أسفل الثلاجة. لقد صنع لنفسه ثلاث فرص لزجاجات من دون غطاء بدلًا من واحدة. وهي، رحمها الله، قلبت الدنيا عليهما وظلت تقول:

«ياريت اللي يشرب من قزازة، يبقى يرجع الغطا مكانه».

ثم إن وقتًا طويلًا لم يمر حتى عثرت على الغطائين وأعادتهما إلى مكانيهما، وكثيرًا ما استغرب من مثل هذا الموقف لأن الزجاجات ليست مكشوفة في الصالة أو في الشارع بل مكشوفة داخل الثلاجة والثلاجة مغلقة إذن فالزجاجات مغلقة بطريقة أو بأخرى. لقد أراد

أكثر من مرة أن يشرح لها هذا الأمر ولكنه لم يجد حماسة للقيام بذلك. وبينما كان جالسًا في المرحاض فكر أن هذه الزجاجة الوحيدة التي من دون غطاء لم تعد مصدرًا للاستمتاع فقط ولكنها صارت مناسبة للتفاؤل أيضًا. كلما مد يده وأمسك بها مصادفة استبشر ببقية اليوم وصار أكثر اطمئنانًا. الآن وقد رحلت فكر أن ينزع بقية الغطيان ويضعها في أي درج أو يركنها بعيدًا وشعر بالحرج وأن الواجب يقضي أن لا يفعل ذلك قبل الأربعين على الأقل. وحينئذ رن جرس الباب.

عندما فتح كان عبد العال واقفًا يلهث وهو يمسك صينية الشاي بين يديه، واستطاع بالكاد أن يقول:

«وسع».

أبو سليمان تراجع بينما تقدم الآخر والأكواب تهتز على الصينية المعدنية وتصدر أصواتًا. ولما وصل إلى الطاولة في منتصف الصالة مال ووضعها وهو يكاد ينكفئ ثم جلس على المقعد ورجع بظهره إلى الوراء وراح يتنفس وهو يرفع وجهه. وأبو سليمان جلس ونظر إلى أكواب الشاي وقال إنه جاء في وقته.

٢٥ـ صور قديمة

عندما عاد، لاحظ أن البيت الذي شهد سنوات شبابه صار أكثر ضيقًا وعتمة. الزبالة زادت، والذين تركهم صبيانًا صاروا شبابًا يقفون على النواصي يدخنون البانجو ويتعاطون البرشام.

لقد قضى السهرة كلها يقلب في ثيابهم القديمة. بنطلونات وبلوفرات وهدوم ملونة لإحسان وسليمان وأشرف منذ أن كانوا أطفالًا. وفتح سوستة الحقيبة الجلدية وأفرغها على السرير، كمية كبيرة لصورهم في مراحل مختلفة. إحسان بوجهها الجميل الشاب تحدق في الكاميرا ضاحكة بعينين كبيرتين وهي في زينتها الكاملة. في صورة أخرى لهما سويًا في ركن الصالة، قميصه خارج البنطلون وهي بجلباب منزلي خفيف وتفاصيل جسمها واضحة في الصورة. في واحدة أخرى تجلس على السجادة بشعرها الطويل السايب على ظهرها وأمامها الولد سليمان عاريا من كل ثيابه وهي ترفع ذراعه لتلبسه شيئًا، وأشرف يجلس مربعًا في المقعد الكبير يتطلع إلى عري شقيقه ويفتح فمه عن آخره بسبب الضحك، بينما وقف هو يتابعهم من المدخل المؤدي إلى دورة المياه، بقامته النحيلة وشعره الكثيف الأسود، ثم عثر على مجموعة كبيرة من صور أعياد

ميلاد الأولاد. الصالة التي يجلس بها الآن مزدحمة ومزينة بشرائط من الورق اللامع متقاطعة مع بالونات ملونة وأولاد تلبس طراطير والمنضدة المربعة حولها أمه وشقيقاته وأم إحسان وابنة الأسطى محمود الصدفجي جاره القديم الذي كان يقف في الركن وبيده طبق من الحلوى وراح يتطلع في أرجاء الصالة ويقول في هذه الصورة كنت أقف في هذا المكان وكانت هي تقف في هذا المكان وأمي مكان التليفزيون والصدفجي مكان الشماعة، ثم ترك الصور مبعثرة على الفراش وجلس في الصالة وفتح التليفزيون وأمسك بالريموت وجعل الصوت مسموعًا بالكاد. وظل ينتقل من محطة لأخرى وقام مشى لغاية المطبخ ولاحظ الثلاجة القديمة وشرب وانتبه إلى الأشكال البلاستيك المتربة التي كانت زينت بها باب الثلاجة وجوانبها. كانت عناقيد العنب بلونها الأخضر الشفاف والأحمر معلقة في مشاجب صغيرة من السلك المثبتة في شرائح من البلاستيك الملصق بضغط الهواء، وكانت كل واحدة من حبات الفراولة المشقوقة وثمار المانجو الصغيرة واليوسفي وسلال الفاكهة الصغيرة مفرغة من الداخل وبها إصبع في قمته قطعة من المغناطيس الذي يلتصق بباب الثلاجة أو أحد جدرانها، أما قرون الفلفل الأحمر بأقماعها ذات الورق الأخضر فلقد كانت ملتصقة وهي كاملة بواسطة شرائح المغناطيس المثبتة في جوانبها. وتذكر كيف كان يتصرف عندما يفتح الثلاجة لسبب أو آخر ويقع شيئًا من هذه الأشياء. كان ينظر إلى الثمرة الملقاة على البلاط ويدفعها بمقدمة حذائه أو شبشبه ويخفيها تحت الثلاجة أو النملية. ثم شعر بالأسى أكثر وتذكر أيضًا كيف كان يجلس في الصالة ويلتفت آخر الليل ويراها من باب المطبخ وهي واقفة تعيد تزيين ثلاجتها.

٢٦- جـار قديـم

فتح الباب وخرج إلى الطرقة الممتدة بين شقته وشقة العم محمود المغلقة منذ سنوات، بعدما كان بابها لا يغلق أبدًا.

وقف يتكئ بمرفقيه على السور الحجري الذي يمتد بطول هذه الطرقة يشم الهواء ويطل على شبابيك ومناور البيوت المواجهة، يفكر أيام ما كان الأسطى يعيش مع الحاجة ثريا التي تتحرك بصعوبة بسبب بدانتها وتصغره قليلًا. كان رجلًا جادًا ضامر الوجه ونحيل وفي كلوة يده اليمنى ورم صغير بارز أخبره مرة أنها شظية صغيرة تخلفت في يده من حرب فلسطين. يلمع حذاءه ويرتدي القميص المكوي والبنطلون عندما يكون خارجًا ويعود ويفرد البنطلون وينظفه بالفرشاة وهو واقف بالفانلة واللباس أمام باب الشقة المفتوح ويعلقه على الشماعة ويضعه داخل الدولاب. زمان كان خليل يجلس معه في ركن الصالة أمام الطاولة ويتفرج وهو يصمم موديلًا لحذاء رجالي أو حريمي أو صندل للأطفال على فرخ من الكرتون ويقصه، ثم يأتي بلوح رقيق من الزنك ويضع عليه هذه التصاميم الكرتونية في مقاساتها المختلفة ويقص الصاج بالمقص الحديدي القاتم إلى

قطع تمثل وجه الحذاء وكعبه وجوانبه، ويضعها بعضها فوق بعض ويذهب بمجموعة المقاسات إلى الورش التي تتعامل معه لكي يقوموا بتنفيذها.

في تلك الأيام كان خليل شابًا والأسطى له شعر أسود والحاجة ثريا جميلة وبيضاء ولا تجلس مع الضيوف في الصالة ولكنها تعبر من الحجرة الداخلية إلى المطبخ. الأسطى محمود ترك عمله بسبب شيوع الأحذية الجاهزة وعدم حاجة أصحاب الورش إلى تصميماته. عندما يزوره بعدما خلت مقدمة رأسه من الشعر وانحنى كان يرى في ركن الصالة، حيث يجلِسان، لفة متربة من الجلد مازالت باقية وكذلك الطاولة القديمة التي كان يعمل عليها خالية من أي شيء إلا المقص الحديدي القاتم والمسطرة المعدنية الطويلة لأنه يرفض الاقتراب من هذه الأدوات كما يرفض استخدام الطاولة في غرض أو آخر. كان يتطلع إلى قدمي خليل وهما يجلسان معًا ويطلب منه أن يخلع فردة الحذاء التي يرتديها ويقلب فيها جيدًا ثم يعيدها إليه. أحيانًا لا يطلب منه أن يخلعها بل ينحني أمامه ويقبض على قدمه ويرفعها بالحذاء إلى حجره يتأملها ويشير بإصبعه ويقول لو أن هذه المقدمة كانت أعرض أو أن هذه الفتحة كانت أطول لأصبح مريحًا أكثر. بعض المرات كان يهز رأسه بعد التأمل ويتوقف عن الكلام في أي شيء. كان يراه أحيانًا وقد فك ريش المروحة وجلس على الكنبة شبه عار وهو ينظفها من التراب ويمسحها بفانلة قديمة منزوعة الأكمام ويقول إنها مروحة أصيلة لأنها تلم الغبار الذي في الحجرة وتنقي الهواء لذلك ينظفها كل شهرين أو ستة. هو لم يخبره أبدًا أن كل المراوح تلم التراب في ريشها ليس بقصد تنقية الهواء

ولكنها تفعل ذلك وحدها. كان رجلًا قليل الكلام وطيب رغم جهامته ويدخن المعسل. يشعل الفحم في الموقد الصغير ويضعه على سور الممر بين الشقتين حيث يقف هو الآن، ولما تستوي النار يأخذه ويدخل. يعد الشيشة ويرفعها عاليًا بيده اليمنى ويمسك خرطومها باليد الأخرى ويعبر الصالة وهو ينقل قدميه بحذر حتى يدخل المرحاض يقضي حاجته وهو يدخن. عندما تغير الحكومة الساعة في التوقيت الصيفي أو الشتوي لم يكن يغير ساعته ويقول إن هذا موضوع يخص الحكومة ولا يخصه في شيء. عاش على المبلغ الزهيد الذي تصرفه له النقابة والمعونة الشهرية التي يقدمها له ابنه الكبير. أيام الوفرة كان قد أصر على تعليم أبنائه تعليمًا عاليًا. البنت صفاء متزوجة من ممدوح المحامي الأحول ولديها أبناء، والولد الكبير أحمد مهندس ناجح ونحيل وفي عينيه حزن. عندما تنكسر نظارة الأسطى الطبية التي كان يكسرها كل شهرين أو ثلاثة كان يذهب لزيارة ابنه ويجلس يشرب الشاي ثم يتناول نظارة هذا الابن الطبية من المكان الذي يجدها فيه ويرتديها ويترك المكسورة مكانها. والولد يقول لخليل عندما يلتقيه:

«مفيش فايدة. أقول له يا بابا لازم تعمل كشف، لأن النظارات دي لها مقاسات».

ألاقيه لبسها وقعد يضبطها على أنفه وينظر إلى التليفزيون في الناحية الثانية من الصالة ويحرك رأسه من أعلى إلى أسفل ومن اليمين للشمال ويأخذها وينصرف:

«قول لي أعمل إيه».

كان عنده ولد ثالث ولكن خليل لم يره أبدًا وسمع فقط أنه أطلق لحيته بعد بكالوريوس الخدمة الاجتماعية واختار العمل كسائق على عربات النقل والجرارات ويسافر من بلد إلى آخر ويتابعون أخباره وأيام يقولون إنه في ليبيا وأيام يقولون إنه في العراق أو يقولون إنه في اليونان ومرة سمع إنه في إيطاليا. المهندس وشقيقته التي تزوجت ممدوح المحامي الأحول كانوا يأتون بأبنائهم للزيارة. يدقون الباب لتحيتنا أنا وإحسان. أحيانًا كانوا يصرون على دعوتنا لمرافقتهم وندخل وراءهم ونجلس جميعًا نشرب الشاي. الحاجة ثريا تجلس على الكليم لأنها لا تستطيع أن تقوم من الأرض بسبب حجمها والأسطى يتابع أحفاده الصغار ويجلس على الكنبة يكلم الولد سمير الذي كان في الرابعة تقريبًا ويحادثه مثلما يحادث رجلًا كبيرًا. إذا صفعه الولد أو قبض على أنفه لا يريد أبدًا أن يفلته يغادر المكان ويعتكف في الحجرة الداخلية ولا يستطيع أحد أن ينهر الولد لأن الأسطى سوف يغضب. يتذكر خليل أن إحسان قالت للولد سليمان وهو نازل يشتري الفول من منصور في الكوب الألومونيا أن يسأل الحاجة ثريا إن كانت تريد شيئًا من تحت. والولد عاد يقول إن الحاجة ثريا في المستشفى. لقد اتجه هو وإحسان إلى هناك وطرقا الباب وسألا عما حدث والأسطى قال إن الحاجة تعبت في الليل وذهب بها إلى المستشفى واحتجزوها هناك. يومها لبس هو القميص والبنطلون وإحسان لبست البنطلون القطيفة البني وأخذت الولد سليمان في يدها ورافقاه إلى المستشفى. عند باب الزيارة اشترت إحسان برتقالًا ووجدت إيمان زوجة المهندس وصفاء ابنة الحاجة ثريا ووقفت معهما. خليل لا يذكر إن كان المهندس

أو ممدوح المحامي هو الذي قطع لهم تذاكر الزيارة وصعدوا إلى الدور الثالث أو الرابع.

دخلنا العنبر ونظرت إلى الأسرة المرصوصة. في بداية الأمر لم أجد الحاجة، ثم رأيتهم وقفوا صامتين أمام أحد الأسرة وتطلعت إلى المرأة البدينة التي جلست في وسط السرير ووجدت أنها الحاجة ثريا. كانت عرت شعرها وقد صبغته باللون الأسود البني ولونت بالأحمر خديها وشفتيها النحيلتين ورسمت حاجبين أسودين مكان حاجبيها وكحلت عينيها. كانت تتطلع مبتسمة وقد فتحت فمها الخالي من الأسنان والولد سمير انكمش خائفًا وأمسك بساقي أبيه، وقالت ابنتها:

«إيه يا ماما اللي انتي عاملاه ده؟».

الأسطى محمود التفت إليها بنظرة صارمة أوقفتها.

وزوجة ابنها تقدمت ووضعت كيس العصائر إلى جوارها على الكوميدينو والحاجة ثريا قالت:

«واد يا سمير، مش حتبوس ستك؟».

كان صوتها شابًا وجميلًا والولد انكمش أكثر وأبوه دفعه ناحيتها والولد اقترب وأعطاها خده وقد أغمض عينيه وهي احتضنته وأغرقته تقبيلًا. الأسطى سألها بهدوء:

«الحكيم قال إيه؟».

ردت بفرح:

«حلوة».

وضعت أنا الآخر كيس البرتقال الذي كنت أحمله. يتذكر خليل أنهم عندما وقفوا في الشارع خاطب الأسطى محمود ابنه المهندس قائلًا:

«خليك جاهز».

انصرف الابن مع زوجته إيمان وشقيقته صفاء انصرفت مع زوجها المحامي ووقفنا وحدنا وأخبرني أن هذه العائلة هكذا، عندما يوشكون على الموت يفعلون نفس الشيء، وأن أباها قبل أن يموت صبغ شعره وركب طاقم أسنان لا يخصه ولبس هدوم مسخرة وفكر يتزوج أم مرسي الأرملة التي تسكن أول دور في الشقة التي على اليمين وأنت طالع.

«ومات تاني يوم على طول. هي العيلة دي كده».

قال إن عليه الذهاب الآن إلى عبد الخالق الحانوتي لكي يجهزوا المقبرة.

في اليوم التالي توفيت الحاجة ثريا بعد أن نقلوها إلى العناية المركزة وجعلوها تشم الأكسجين.

كان الأسطى محمود يتقدم الجنازة التي خرجت من جامع السنية القريب ويمشي منتصب القامة في خطوات بطيئة ويضبط حركة الناس وراءه ولا يسمح لهم أن يسرعوا. يتذكر خليل أنه جرب يشارك في حمل النعش لأول مرة في حياته ولكنه كان ثقيلًا وانتحى جانبًا ومشى بين الناس. وفي المساء جلسوا في السرادق واستمعوا إلى آي الذكر الحكيم ثم صعد كل واحد إلى شقته. وأم مرسي التي

حضرت عملية غسل الحاجة ثريا في المستشفى أخبرت إحسان أن وجه الحاجة كان لونه أزرق غامق وإحسان قرأت بعد ذلك في صفحة الحوادث أنه تمت مصادرة مجموعة من أسطوانات الأكسجين في المستشفى التي كانت الحاجة بها لأن هذه الأسطوانات كانت ممتلئة عن طريق الخطأ بغاز ثاني أكسيد الكربون بدلًا من الأكسجين وأن وجوه المرضى الذين توفوا صارت كلها زرقاء، وإحسان قالت لخليل:

«شوف ولاد الكلب. تفتكر لون الحاجة الأزرق له علاقة بالحكاية دي؟».

وخليل تطلع إليها وقال:

«ده شيء مؤكد».

يتذكر ذلك ويفكر أن إحسان الله يرحمها كان عندها حق. وقال في نفسه:

«الوليه دي شمت أكسيد الكربون فعلًا».

في الصباح صادف الأسطى على السلم وهو يلبس الطاقية ويحمل إناء ملأه بالفول من عند منصور الذي يقف وراء القدرة الكبيرة المدفونة في قش العربة الخشبية الصغيرة بذراعيها القصيرين في جانب الوسعاية، وخليل ألقى عليه السلام وقال:

«صباح الخير يا عم محمود».

إلا أنه لم يرد عليه.

ومضت أيام وباب شقته مغلق بعدما ظل طول عمره مفتوحًا ولا يغلق إلا عند النوم.

يتذكر خليل كيف أن إحسان كانت تخبره كل يوم عند عودته من العمل أنها تسمع الأسطى وهو يتحدث طول النهار مع أحد داخل الشقة:

«ساعات يضحك، وساعات يتخانق».

وهو يقول:

«لازم معاه حد من أصحابه أو قرايبه».

«طول النهار؟».

«جايز».

خليل عاد من العمل ووجد صفاء ابنة الأسطى وزوجة المحامي تجلس مع إحسان في فستان أسود. رحب بها وجلس معهما يشرب الشاي وفهم من الكلام أنها جاءت تسأل عن أبيها لأنها دقت الباب ولكنه لم يرد عليها واستغربت أكثر عندما أخبرتها إحسان أنه معظم الوقت لا يكون وحيدًا. في المساء عندما كان في الصالة انتبه إلى صوت الأسطى يعلو وهو يتحدث إلى أحدهم داخل الشقة وسمع صوت الباب يفتح وخليل خرج ووجد منقد الفحم موضوعًا على سور الطرقة الطويلة المكشوفة للهواء والبيوت المواجهة ويومها ظل قريبًا من بابه المفتوح لأن الفحم لن يلبث أن يشتعل. لحظات قليلة وفتح الباب الآخر وخرج الأسطى يتناول المنقد وهو في ثيابه الداخلية واعتدل ورأى خليل وتطلع إليه مندهشًا وخليل قال مسرعًا:

«مساء الخير».

وظل الأسطى صامتًا ثم قال:

«تعالى».

وسبقه إلى الداخل.

عندما تبعه لاحظ أنه وحده في الشقة والتليفزيون شغال.

جلس على حافة الكنبة ورأى كوبين ممتلئين بالشاي في الصينية الصغيرة. أعد الشيشة وجلس يدخن وهما صامتان ثم قام اتجه إلى الحجرة الداخلية وخرج يحمل غيارًا داخليًا وغادر باب الشقة المفتوح وخليل تبعه إلى الخارج ورآه يقلع لباسه الداخلي وفانلته في الطرقة المكشوفة بين الشقتين ويقف عاريًا كما ولدته أمه وخليل تطلع إلى الشرفات المقابلة والنوافذ المفتوحة وبعض الناس الذين يتفرجون من هناك بينما كان هو يرتدى غياره النظيف على مهله. انتهى من ذلك وطوى الغيار الذي قلعه ووضعه تحت إبطه وترك خليل في الطرقة الخارجية وعاد إلى شقته وأغلق الباب. خليل ترك الطرقة وعاد إلى شقته وأغلق الباب وجلس على الكنبة وتذكر أنه دخل يومها وجلس على الكنبة كما يجلس حتى جاءت إحسان من المطبخ وأخبرها بما حدث وهي قالت إنه منذ وفاة الحاجة ثريا وهو يقلع هدومه ويقف عريان في الطرقة ولا يدخل الشقة أبدًا إلا بعد أن يلبس الغيار النظيف وإن الناس كلها تعرف ذلك.

٢٧ـ آخر الليل

جاء الأولاد والأشقاء وزوجاتهم لحضور الأربعين، صعد عبد العال وأم نادية ونادية. وجاء الأستاذ مصطفى والأستاذة كوثر كما جاء رزق وأبو زيد المليونير. جاء زكريا وزوجته وابنه العريس والمهندس أحمد ابن الأسطى محمود الصدفجي وزوجته إيمان وممدوح المحامي الأحول وزوجته صفاء وجاء الدكتور حسن وعزت البقال كما جاء توفيق عثمان. سكان البيت والجيران صعدوا يحملون الكراسي التي سوف يجلسون عليها والصواني وأكواب الشاي والقهوة وهناك من صعد بالشيشة ومنقد الفحم والدخان. أفواج تملأ الحجرتين والصالة وتنصرف وبنات البيت بقين في المطبخ يقمن بإعداد الشاي والقهوة ويكتمن الضحك والأولاد يلعبون على السلم والبيت امتلأ بالضجيج والنور والأستاذ يتأمل الحاضرين ويفكر بأن أمه ماتت وأبوه مات وخاله مات وجدته ماتت والخولي مات وإبراهيم حيدة مات، ومحمد نويتو مات وفاروق نويتو مات وحسن حسين مات. والشرباتي مات. وعبد الرحيم مات وهانم ماتت وسعيد مات ومحاسن ماتت وسامية زوجة محسن ماتت وإحسان نفسها ماتت وقال يا ترى صيام، ومصطفى، ونبيل، ما زالوا

أحياء؟ وقال لا بد أن يسأل عنهم ويعرف. ظل هكذا والشيخ مصطفى إسماعيل يقرأ القرآن في جهاز التسجيل والناس كلها يتكلمون بعضهم مع بعض في وقت واحد في داخل الحجرتين وغامت الدنيا في عينيه وشعر أنه نصف نائم وأراح ظهره على مسند الكنبة وبدأ يحكي لتوفيق عثمان الذي يجاوره ويقول بأنه في الحقيقة كان يجلس في الصالة:

«زي ما أنا قاعد كده دلوقت، والفيلم القديم كان شغال في التليفزيون، وبعدين جرس التليفون اللي في الفيلم ضرب. هي افتكرت إن جرس التليفون اللي في الصالة هو اللي ضرب. قامت قالت وهي في الأوضة:

«حد يرد على التليفون يا اولاد».

في اللحظة دي، عباس فارس اللي بيمثل في الفيلم،

قام لبس الطربوش وراح يرد على التليفون.

كأنه سمعها وهي بتنادي.

أنا بقى قمت من مكاني، ودخلت أقول لها،

إن عباس فارس سمعها ورد على التليفون،

من باب الهزار يعني،

لقيت السر الإلهي طلع.

والتفت إلى توفيق لكي يستكمل حكايته ووجده مشغولًا بالكلام مع عبد العال، وتوفيق انتبه له، وهو لم يحكِ الحكاية مرة أخرى.

٢٨ـ أول النهار

تناول كوبه الألومونيا المركون وغسله تحت الحنفية.

كان كوبًا كبيرًا له رقبة ضيقة وشفته العليا مقلوبة إلى الخارج، وكان ناعمًا وفي جنبه خبطة وحيدة. فتح الباب وظل واقفًا في الطرقة أعلى السلم حتى صادف ولدًا من السكان وناداه:

«عارف منصور بتاع الفول؟».

«أنا عارفه. واقف بالعربية عند أبو كمونة المنجد».

«خليه يملاها، وهات الباقي».

والولد تناول الكوب والجنيهات الخمس وأسرع ينزل السلم.

دخل وفتح النافذة لنور النهار وجلس على الكنبة. كان منتعشًا مثل رجل غلبه النوم في مكان يعرفه ثم قام ليجد نفسه في مكان غريب. وتهيأ له أن حياته كلها صارت وراءه ولا سبيل لاسترجاع شيء مما مضى، إلا أنه لم يصدق نفسه. وانتبه لجرس الباب. عندما فتح وجد الولد الذي أرسله يقف وخلفه منصور بائع الفول يصيح:

عن المؤلف

بدأ الكاتب الكبير «إبراهيم أصلان» الكتابة والنشر عام ١٩٦٥، وفي ١٩٦٩ أصدرت عنه المجلة الطليعية «جاليري ٦٨» ملفًا خاصًا. في العام ١٩٧١ صدرت مجموعته القصصية الهامة «بحيرة المساء»، ثم نشر مجموعة من الروايات والقصص القصيرة والنصوص السردية منها «وردية ليل» و«عصافير النيل» و«خلوة الغلبان» و«حكايات من فضل الله عثمان». وفي عام ١٩٩٢ تحولت روايته الهامة «مالك الحزين» إلى واحد من أهم وأشهر أفلام السينما المصرية «الكيت كات». ويعمل الكاتب الكبير رئيسًا لتحرير سلسلة «آفاق عربية» التي تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ومسئولاً عن القسم الثقافي بجريدة الحياة اللندنية (مكتب القاهرة) منذ العام ١٩٩٢ وحتى الآن.

حصل «إبراهيم أصلان» على عدة جوائز منها «ساويرس» في القصة القصيرة عام ٢٠٠٦، كما حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٣.

صدر للمؤلف

١ ـ بحيرة المساء	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢ ـ مالك الحزين	رواية	١٩٨٣
٣ ـ يوسف والرداء	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤ ـ وردية ليل	رواية	١٩٩١
٥ ـ عصافير النيل	رواية	١٩٩٩
٦ ـ حكايات من فضل الله عثمان	مجموعة قصصية	٢٠٠٣
٧ ـ خلوة الغلبان	نصوص سردية	٢٠٠٣
٨ ـ شيء من هذا القبيل	نصوص سردية	٢٠٠٧